نادية الابرو

جاء من العتمة

مجموعة قصصية

جلجامش

جاء من العتمة

مجموعة قصصية

عنوان الكتاب : جاء من العتمة

المــؤلــف : نادية الابرو

الـتـصنيف : مجموعة قصصية

الطبعة : الأولى

سنة الطبع : 2024

التنسيق الداخلي و تصميم الغلاف : فلاح العيساوي

دار ومنشورات جلجامش
ناشرون وموزعون
العراق - بغداد - شارع المتنبي
جديد حسن باشا
+964 770 633 6353
saidgilgamesh@gmail.com

ISBN: 978-9922-8864-6-6

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (1767) لسنة 2024م

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب او تخزين مادته بطريقة الاسترجاع ، أو نقله على اي نحو أو بأي طريقة كانت (ألكترونية) أو (ميكانيكية) أو بالتصوير أو بالتسجيل أو بخلاف ذلك إلا بموافقة كتابية من المؤلف أو الناشر .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system, or transmitted in any former by any means, Electronical, Mechanical and Photocopying, recording of otherwise . Without prior permission in writing of the Publisher or Auther .

كل ما ورد في الكتاب يعبر عن رأي الكاتب ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر

نادية الابرو

جاء من العتمة

مجموعة قصصية

٢٠٢٤

إذا بدا كل شيء حولك مظلماً، أنظر مـرة أخرى قد تكون أنت النور....

جلال الدين الرومي

ثقب أسود

كنت استنير بوجوده، اتبع ضوءه، يحثني دوماً على المواصلة خلفه دون كلل وإن شخت وانهارت قواي وباتت الحركة مؤلمة ثقيلة لكن كرامتي بل الأحرى ولعي به يستنهضني كما السنين البعيدة الخوالي للجري وملاحقته في سباق محموم لا ينتهي ولا يسفر عن فائز أو خاسر وذلك منتهى الوصال والكمال، دوران ودوران مشبوب بالحماس والقوة، نور ساطع أزرق وهاج لامع لا تخطئه عين ولا ينفك يشدني وأمل بالتلاقي لا يتزعزع لأدرك الآن أني أسير نحو فنائي إذا ما اقتربت نحوه أكثر وقد استبدت الظلمة والبرد بروحه، وحشية شرسة تغلب طبعه، الخوف من الموت والأفول يدمره، يخرجه عن مساره، تلاشى جماله وبهاء طلعته الذي طالما غبطته عليه، جرم داكن فظ قبيح معتم بفم شاسعة عملاقة مرعبة غائرة يلتهم ما يصادفه في نهم بالغ لا حدود لشبعه ولا مأمن من صوت تقهقره المجنون أو المستغيث ربما!

أن تكـون عظيمـاً شـاهقاً شاسـعاً لا تحـدك حـدود ولا أبعـاد أو مقاسـات مبنيـة علـى فرضـيات وتكهنـات فحتمـاً ستكون النهاية مـدمرة قاسية، أصـغي لنشيجه الـذي يفتك بقواي المتهالكة وباقي ذخيرتي الشاحبة، ينبهني من مغبة الجري نحوه، المسكين بات موغلاً في وحدته وشراهته الشرسـة، لمـاذا يـأتي المـوت علـى هـذه الشـاكلة البشـعة والصخب المدوي الموجع؟!

تحذيراتـه تـدق مسـامعي بقـوة عنيفـة مزمجـرة، تنخـر جلادتي، ولا أنفك من التفكير في الإسراع إليه والتحلل داخل أحشائه الفولاذية القاسية متلاشياً كـأني لـم أكـن من الأصل، فما جدوى الانتظار؟ والعيش وحيداً معزولاً في مدار يتراخى ويتسع، يتمدد ويبتعد في ظلمة دامسة سوداء مرهقة! كـم مـن الوقـت أمـامي؟ ومـاذا أصـنع بـه؟! نجمـي الرفيق غدا وحشاً يلف المدارات مطارداً صياداً لا يعرف الرحمـة، منكمشـاً علـى ذاتـه يصـارع قلبـاً يلفـه الحديـد مسـتأثراً بوجدانـه، نجمـي الحبيـب أيـن منـك ذاك الخفـر والدلال؟! أمعقول أن أرحل عنك!! أرجوك لا تلح علي، أفضل سماع نشيجك الموجع على الرحيل، أنت وطني ألم تدرك بعد؟!

رجاءه المخنوق يواصل حثي على المغادرة فيقشعر بدني، ابتهالات تأتي خافتة هادئة لوهلة حتى تتحول إلى أزيز غامض متصاعد لا قِبل لي على وصفه... إذهب بعيداً... إذهب، لن أكون قادراً على حمايتك مني، مسكون أنا بكيان ثقيل مرعب يمتص روحي، يقتات جذوتي الأخيرة، أتحول إلى مسخ جبار هائل، غادر هيا، غادر قبل أن يطالك بطشي.

لا أفهم لماذا يستعذب الموت وحيداً ولا يقبل بي لقمة تضيع فيه؟ أين لي أن أرحل بين هذه الأفلاك؟ أين أمضي؟

تجر نفسها مرهقة تحت شمس لاهبة، تلهث من الحر، لا مكان، حيث تبحث بعينين متعبتين عن فيء قصي، لا مكان آمن والوجع يتزاحم عليها في نوبات متتالية شديدة قاسية، تئن ولا مكان تلوذ به من أشعة الشمس والمارة الفضولين حتى أخذتها أقدامها الناحلة نحو أنقاض بيت خرب سقط سقفه (الا ندل) على جدرانه المتهدمة، يتخذ منه أهل الحي مكباً لنفاياتهم المتزايدة.

تصارع جفوة الألم وحدها دامعة وقد ألقت بثقلها في الزاوية المعفرة بالتراب، الوجع يتصاعد لا يستكين في سباق متدافع نحو الخلاص، البطن متصلبة منكمشة على انتفاخها بانتظار اللحظة الحاسمة، فمها يرتخي على لسانه فيزبد تارة وتصك على أسنانها تارة أخرى، صوت الوجع يتعالى فيزداد لهاثها وتتقطع نبضات قلبها في استسلام واعٍ لتلك اللحظة، الألم يبلغ ذروته في موجة عالية تغشى عليها

فتندلق جراءها الواحد تلو الآخر تحتها في نـزال مع البقاء يحـتم عليها أن تتفحصـهم مـن بـين عينين دامعتين نصف مغمضـتين ولسـان نضـب وجـف، لعقـتهم في تكـورهم اللـزج المسـتكين ليزاحموا أهـل الحـي بعـد شـهر ونيـف في رواح وإياب مرح بريء لا يسلم من مشـاغبات الأطفـال ومنـاكفتهم أحيانـاً بالحجـارة، متعلمـين فنـون تحاشيها وتجنبها بـالجري والاختبـاء في نشـوة عفوية صادقة.

ليس هناك من متسع للحلم والبقاء جوار ناس توغر صـدورهم الضـغينة والعجـز في اسـتيعاب البراءة والجمال حتى استساغ أحدهم قذارة فكرة راودتهـم فـألقم الجـراء قطـع اللحـم المنقوعـة بالسم مع أمهم.

إنهاء خدمات

طاقتي توشك على النفاد بعد قطع تلك المسافات البعيدة، ولا أعرف كم تبقى لي من الوقت! أشيخ كل لحظة ويدب الخوار إلى أعماقي المتصالبة، لكني بت قريباً من جرم تصل أنواره إلي متجاوزة حدود ظلمتي وعزلتي موقظة فضولي بالاقتراب أكثر وأكثر، فأدنو على خشية، عالم هائج بالحركة، أصوات وضجيج لم يسبق لي سماعه، أقترب من سمائه، غريب هذا الجرم لا يعرف معنى للسكون! مزدحم بشتى أنواع الحياة، وأشياء أخرى كثيرة لم يسبق لي رؤيتها من قبل، حقاً مكان غريب! من يدري ربما سأقضي ليلتي الأخيرة على عتبة سمائه، ودفع بنفسه مقترباً بفضول حيث لمح كلباً منكس الرأس متسمراً مذهولاً في مكان خلي بعيد.

هدير محرك السيارة يبتعد تدريجياً مثلما ضوء مصابيحها الخلفية يتلاشى ويخبو، أحث أقدامي على الجري خلفها ولا أجرؤ، تتملكني غصة عارمة تطبق على

حنجرتي، تنتفخ أوداجي، ولا يخرج صوت نباحي، أدور حول نفسي في ذهول، هل حان دوري مثلها؟! هل حقاً حان؟!... تأملتها من حوض سيارة البيك آب، نزلت بتؤدة مترددة وإن بانت ساكنة، انزلقت قدمها وهي تحمل بيدين معرورقتين شابها نمش الشيخوخة وتغضناتها، ذيل عباءتها مكفكفة مع حقيبة سوداء فيها نزرٌ من بعض ثيابها وأدوية الضغط والسكر، هاك يا سيف أدوية والدتك، يا الله كم يناقض البشر أنفسهم! لم ينسيا دواءها! أشرطة أقراص صغيرة بيضاء وأخرى شاحبة صفراء وعلبتين زجاجيتين صغيرتين معتمتين، يا لطيبتهما وحرصهما!

لا يغيب وجهها عن ذاكرتي تلك الليلة، قسمات جامدة أشبه بالميتة،عينان مدلهمتان، تنكفآن على قزحيتين بانحناءة خائبة نحو الأسفل مثلما تتطاول الفم رعشة تنحسر موجاتها الصغيرة بين ثنايا التجاعيد فينكمش خط الشفاه المتعرج ملموماً على كلمات خرساء فقدت صوتها، وتحت مصباح الشارع الباهت وقفت عاجزة، وضوؤه يصب على رأس عباءتها نازلاً بيسر على جانب وجهها تاركاً الآخر ينازع العجز في الظل فيحكم الألم قبضته عليه، متصلبة بقبضة يدها على حقيبتها، وجومها يطغي على حركتها حين لفت رأسها ببطء متخاذلاً نحو

المبنى العتيق الرابض على مسافة أمتار عدة من رصيف الشارع وقد راودته ظلال من العتمة والسكون.

ترجل من السيارة نحوها طابعاً قبلة سريعة لم تكد تهوى على خد حاسر على فك فقد بضعة من أسنانه الخلفيه هامساً بكلمات متعجلة هشة: ديري بالچ على نفسج، وانطلق بالسيارة دون أن يلتفت خلفه برفقة نباحي الذي اختفى خلف هدير السيارات وجوقة المشاة، بقيت واقفة كغصن مكسور بانتظار هبة ريح أن تسقطه أرضاً، ابتعدنا أمتار وأمتار لم أعد قادراً على لمحها وأنا أتشبث بحوض السيارة مقترباً من الحافة في محاولة أخيرة لرؤيتها من مسافة...

نزعتني سيدتي من الموت بأعجوبة حينما حملتني بين يديها مشفقة على حالي وقد تعثرت بي كقدر محتوم، كان الموت متربصاً بي ينتظر اللحظة المناسبة التي قاطعتها آخذة بي إلى بيتها لتعتني ووحيدها الغر المراهق بي حتى زال تأثير السم، وهناك سمعت للمرة الأولى اسمي الجديد (قيسون) بعد أن كان جرو... أنظروا إلى هذا الجرو، لنلحق به يا أولاد، آخخخخ بطني... وبالكاد نستطيع التخفي عن مرمى حجارتهم وعيونهم المتفرسة الباحثة بشغف عنا كأننا ألعاب يستعذبون ركلها وتعذيبها،

قيسون أظنه اسماً جيداً، أطلقه علي صاحبي المراهق بموافقة سيدتي التي تشع نظراتها حناناً وهي تتفحصني مسرورة بتحسن صحتي واستجابتي للطعام، لكن ما معنى قيسون؟ قيسون قيسون حيث بدأت اشنف أذنيّ حين أسمعه: قيسون تعال هاك أكل، قيسون شلونك، قيسون لا تنبح، قيسون صير عاقل، قيسون لا تعضعض، كان يطيب لي قضم أصابع قدميها ولعقها أو الجري نحوها واللعب حولها: قيسون صير عاقل، ترى أشمرك بره، أوووي قيسون، لكني أواصل اللعب معها غير مصدق تهديدها بالتخلي عني.

مسكين هو ضال أيضاً، البرد بدأ يحط رحاله على هذا المكان الأعزل ولا شيء يقي به نفسه سوى أن انكمش مذعوراً صامتاً، يا لهذه الليلة الغريبة؟! كذلك العزلة هنا عقوبة يصعب تقبلها! هل ألقى حتفي هنا مع هذا الكائن المشرد؟!

في مرات عدة يصادف أن أكون برفقة سيف في حوض السيارة وهو يجتاز الشارع نفسه، فانبح باتجاه ذاك المبنى بلافتته العريضة الساقط عنها صبغ بعض حروفها، أنبح وأنبح عل سيدتي تسمع ندائي وتطل من إحدى نوافذه العتيقة المغبرة المقابلة للشارع، أنبح محيياً مشتاقاً

لملمس يديها الرخو الرقيق يمر على جسدي مداعباً، لرائحة الحناء المنبعثة من شعرها الخفيف المكور تحت شيلة رأسها، الاضطجاع متكاسلاً قرب الأرجوحة حيث تجلس طلباً لدفء الشمس، ذبذبات صوتها الوادع وهي تغنجني: وليدي قيسون الحلووو، وليدي قيسووون، صوت شحط نعلها، وقع خطواتها القادمة نحوي حاملة الطعام، حفيف ثوبها المورد، غيرتي الكبيرة عليها من سيف، أنا ابنها أيضاً ولي فيها أكثر منه، لكن كلانا تخلى عنها هناك، وأخذ يئن ويعوي بدمع حارق... أواصل النباح مهتاجاً بهدف لفت انتباهه والتوقف للاطمئنان على حال أمنا المغيبة خلف جدران ذلك المبني الرمادي الشاخص في وجدان المارة كصخرة عتية، فيبادروا على الإسراع من أمامه منكسي الرؤوس خشية أو خجلاً.

أظنه أخلد إلى النوم رغم أصوات كائنات أخرى يتفاوت قربها ويبتعد أحياناً والتي على إثرها يتقلص جسده أكثر ويجهد نفسه في البقاء مفتوح العينين، لكن على ما يبدو قد استسلم أخيراً لموجة النعاس ونام متدلياً لسانه على التراب، استغرق في سكينته حتى خلته قد مات من البرد، يتناهى إلى مسامعه أصواتهم المقتربة فيشنف أذنيه تأهباً، جوقة تشبهه قليلاً وتختلف عنه أيضاً،

لـم ألتـق بحيـاتي السـابقة بمثـل هـذه الكائنـات وخلـت أن الكون مجرد أجرام قاسية صلبة عملاقة تدور في أفلاكها في سباق مع اللاشيء، ها هي تقترب منه، أففف إنها تقترب، تحوطه في دائرة، يرفع رأسه قليلاً ليهوي به على الأرض ثانية دونما خشية أو مقاومة، استسلام تام هادئ لا يثنيه اقتراب تلك المجموعة المتوحشة، صوت عوائها ومحاولة أحدهم غرز أنيابه الحادة اللامعة في رقبته لولا ممانعة ذاك الآخر الذي يبدو أكبرهم سناً ورشداً، هل مات؟! أمعقول قد مات؟ لا يحرك ساكناً! حلقة الموت تضيق خناقها عليه دون أن يبدي اعتراضاً ولو بإيماءة من وجهه، لسانه المدلوق، ذيلة المتحجر تحته، أقدامه المنقبضة على بعضها، لا شيء فيه يوحي بالحياة! هل مات بهذه السرعة؟! أعتقد أن الموت هنا يحدث بلا عوارض ومقدمات طويلة مثلما نموت نحن.

بعد مدة من الوقت لا أستطيع تقدير حسابها، يستفيق من حسبته بعداد الأموات ماطاً جسده المتصلب الذي ظنته تلك الكائنات مريضاً أو على وشك الموت فأعفت نفسها عن مهاجمته وافتراسه، الريح الباردة تصفر، والظلام ما يزال يرخي سدوله على مهل وتؤدة.

أشعر بالعطش وليس من دليل على الماء في هذا المكان القفر الشاسع، لكنه يبدو مناسباً للموت أكثر من ذاك العاج بالعويل والأقدام المتزاحمة في ذهاب وإياب يربك الموتى في قبورهم... لا أذكر كيف سمح لي بالصعود إلى السيارة ومرافقته، ربما الحزن حينها لم يفسح له متسعاً للتفكير، وربما لأنه يخشى أن يكون وحده بصحبتها، بمساعدة بعض من عاملي الدار استقر الصندوق الخشبي في حوض السيارة وقد لف ببطانية داكنة، لم أتبين الأمر بادئاً، لكن ها هي رائحة سيدتي تنبعث من خلف ذلك الصندوق، فصدمتني الحقيقة ووثبت نحوها لصق الصندوق الذي بقي ساكناً طوال الطريق المقفر، وكم من مرة أطرقت سمعي متوخياً حركة أو همسة قد تصدر منها، لكنها التزمت الصمت كآخر مرة حين تسمرت واقفة تحت مصباح الشارع هي وحقيبتها، لم تلتفت نحونا لكنها رمقتني بنظرة يائسة مصدومة إثر نباحي والسيارة تبتعد، وربما همست باسمي: قيسووون، أو هذا ما خيل لي، سيدتي، سيدتي أما اكتفيت من النوم؟! أرجوك انهضي سيدتي، لم ترد فمكثت إلى جنبها على أمل أن تستيقظ، لكن القبر كان بانتظارها، منعزلاً وحيداً على تلة مرتفعة بعض الشيء يشرف على فراغ

موحش وأجساد قبور ممدة في العراء، بشاهد رخامي نقش عليه بحروف سوداء (المرحومة، الحاجة أم سيف، ١٩٥٠-٢٠٢٢) قرأها أحدهم على مسامع سيف كي يتأكد من دقة عمله.

هل انتهي هنا وحيداً عطشاً حد الموت؟! أهذه النهاية! وبيتي الخشبي الذي أشرفت سيدتي على تركيبه مع النجار مختارة الركن الظليل من الحديقة قرب شجيرات الآس اللاتي تميل بظلها العطر عليه، مثلما يزكيه رائحة ثوب سيدتي الذي سرقته خلسة من الكيس البلاستيكي الأسود المتكئ على الباب بانتظار حمله على كتف أحد المارة الفقراء، دلفت به إلى بيتي كتذكار ثمين لسيدتي بعدما طمست تلك الملعونة كل أثر لها، آآآه استشعرت خستها من اللحظة الأولى التي خطت بها قدماها عتبة البيت وتلاقت عيوننا، تلك النظرة اللئيمة المغلفة بالوداعة والدلال في ادعاء الخشية من الكلاب، نبحت في وجهها مستنكراً، وبالمقابل استنجدت بسيف الذي كان لا يرى ما حوله إلا سواها.

اجتهد في دراسته ولم يفوت فرصة إلا وطلب من سيدتي أن تسارع في خطبة تلك الملعونة قبل أن يستأثر بها أحد قبله، كم يظل غبياً مسيراً يا ترى؟ متى يطلع على

سواد روحها؟! متى؟! وبعد تخرجه من الكلية بأسابيع أصبحنا أربعة، وباتت سيدتي الحنون تترقب قدوم حفيدها الذي تأخر سبع سنوات، سبع عجاف تترك آثارها الواضحة عليها وصبرها على مكائد كنتها التي تتحين الفرص لدق أسفين بين الابن وأمه.

ليتني أعرف الطريق إليك، المكان موحش هنا، عتمة ممتدة وطنين ريح باردة لا يتوقف، ضاعت علي الاتجاهات، يا لك من قاس يا سيف؟! أكانت تعلم سيدتي أن سيفها الذي انخرطت على تربيته وحيدة، حيث لم تشأ أن ينهره زوج أم أو يقابله بنظرة تكسر فؤاده، أول من يضربها في مقتل! بعدما أهيل التراب عليها تكوم عند قبرها مجهشاً بالبكاء متشنجاً كأنه وعى في بغتة صادمة شديدة أن من يرقد تحت التراب أمه، مستشعراً باليتم للمرة الثانية، لكن بشكل فاجع مرير هذه المرة.

تذكر بندم عميق تركه هاتفه صامتاً وعدم اهتمامه في الرد على هاتف دار العجزة إلا بعد فوات الأوان، هو أيضاً ما عاد يفهم نفسه، جحوده وقسوته، فتمرغ فوق ترابها، لطم على خدوده... لم تألف والدتك الحياة في الدار، عافت الأكل وهزلت صحتها، انطوت على نفسها بلا رغبة بالتواصل مع زميلاتها النزيلات، كللها شعور

العار الذي حاولت إنكاره أمام أسئلتهن وتعابير الشفقة التي ارتسمت على وجوههن: ولدي مشغول لفترة من الزمن، وحين يفرغ من أعماله سيأتي مسرعاً لأخذي إلى البيت، لن أبقى هنا طويلاً، لن أبقى هنا معكن، ولدي سيف سيأتي في أي لحظة. المسكينة سألت عنك حتى النهاية! بالله عليك أين كنت؟! أين كنت؟! ماتت المسكينة وعينها على الباب، زمن عجيب أغبر!

يتكور على نفسه، يحاول النوم، تسري فيه قشعريرة البرد أو ربما الذكرى، وما من حيلة لدي لأؤنس وحدته سوى أن أستهلك طاقتي المتبقية في التوهج أكثر كنوع من العزاء له في هذه العتمة، هل سرت تلك المسافات العميقة لأموت هنا مراقباً هذا الكائن الشريد القانط؟!

سنوات عديدة ورحمها يأبى الاستجابة والعلاج حتى جاءت يوماً والفرحة تتهلل على وجهها الذي بات كدراً متجهم التعابير معظم الوقت، حاملة تقريراً يؤكد صحة حملها هذه المرة، فأمسك سيف السماء من شدة ابتهاجه وآثر أن ينقل البشارة إلى أمه التي لم توظب ثيابها بعد في خزانة الدار بانتظار ولدها الذي سيتنبه إلى غلطته الفادحة بحقها -كما أخبرته مديرة الدار- لولا ممانعة الملعونة وارتجالها الحجج والأسباب التي بدا مقتنعاً بها رغم

غيمة الحزن التي عبرت وجهه وظلال دمعة صغيرة تحجرت في مقلته، تلبدت أساريره وهلة، ارتعش حاجبه وتهدلت شفته السفلى كطفل تواجه رغبته بالرفض ولا مناص من التسليم لرغبة زوجته.

كنت ألمح بطنها الذي يكبر، وكم تمنيت أن تحظى سيدتي بفرصة حمل حفيدها الذي طرق باب الحياة بعدما غادرتها جدته دون أدنى علم بقدومه، يا الله يا سيف كيف تحتضن مولودك بين يديك كأغلى ما تمتلكه؟! أما جال في خاطرك للحظة أمك؟ ودموعك تبلل لحيتك فرحاً وسروراً بالصبي الذي أطلقت جدته الخيال في انتظاره والتي لن يجد لها أثراً في البيت بعدما نزعت الملعونة صورتها المعلقة على الحائط بشريطها الأسود المائل في الركن بذريعة أن صور الموتى تجلب الشؤم والكآبة، أين ذهب عقلك ولبك يا سيف؟!

من مكاني القصي شدتني إليه رائحته الطفولية عابقة بأنفي، فأقتنص منه بعض النظرات الخاطفة في منأى من اشمئزاز أمه وغمغمتها المتأففة من وجودي، وادعائها الخشية عليه مني! ابتسامته البريئة المدهشة أبدت صداقة وألفة خفية عقدت بيننا بعيداً عن مدى بصرها المتربص، وحين اشتد ساعداه لم يفوت فرصة فتح الباب إلا وحبا

إلى الحديقة نحوي على وقع ضحكات سيف وانتشائه بطفله الصغير ذي الأطراف الوردية الرقيقة، والوجه المدور الباسم الذي كثيراً ما يستدرج صورة أمه إلى خياله والتي بات تذكرها مدعاة لشقاء روحه وتنازعها بين الخطأ والصواب، الحب والواجب والمسؤولية، ولا سلوى له سوى دموع يذرفها في الخفاء وهو يداعب رأسي ويمسح شاعراً أني آخر ما تبقى من رائحة أمه التي اعتنت بذلك الجرو المشرد الضعيف الذي لم ينسَ قط صورة أمه وعينيها المفتوحتين خيبة وحسرة مع أخوته الخمسة جاثمين على الأرض دون حراك، تلك الحادثة خلفت في خشية ورهاب من أي طعام سوى ذلك الذي تقدمه لي سيدتي، وبات أكثر ما يقلقني الموت بالسم على يد تلك اللعينة بعدما أظهرته من عدائية نحوي رغم مطالبة سيف لها بالعدول عن تلك الأفكار السلبية بحقي، والاستخفاف بظنونها.

يكبر الرضيع ولا يجد حرجاً أو شعوراً بالخوف بالدنو من بيتي عند زاوية الحديقة القصي، فتكبر سعادة سيف واهتمامه وحرصه عليه، وأصبح أنا الخطر الأول المهدد لصحته وحياته حسب مزاعم زوجته التي استعرضت أمامه بعض الفيديوات المربكة عن مدى خطورة الكلاب

على سلامة الأطفال حينما تشيخ ويلازمها الزهايمر، يا لها من مدعية خبيثة؟! حقاً تشعرني بالقرف من طريقة تفكيرها الملتوية المريضة والأكثر دهشة بل إيلاماً أنها تلقى الاستجابة من سيف! وأي سيف هو! لا أظن أنه يملك ولو النزر اليسير من نصيب اسمه، التعب ينال مني، تبدو الصور والذكريات مشوشة مختلطة في عقلي، حتماً أنه بفعل البرد! أفقد تركيزي، لا أعود أذكر لماذا أنا هنا في هذا العراء؟ سيف، سيف، أين أنت يا سيف؟!

ما عاد يحرك أطرافه، سكون تام، وبرد ينحدر زلقاً رطباً على ليل مهيب داكن لا أمل قريب من انقضائه، أظنه غط أخيراً في نوم عميق أو...

من بيت الصفيح والطين المنزوي في طرف الحي الراقي كذنب تتحاشاه العيون وتقرف إلا من بعض الصبية الذين يحومون حوله بانتظار خروج صديقهم فاتحاً بابه الخشبي المقوى بصفيح صدء، بدشداشة البازة المقلمة الرثة الأطراف والتي بهت لونها وارتفع طولها عن الكاحل، وبوجهه المغبر وبعض الندوب يقود فريق كرة القدم حافي القدمين في ساحة جرداء ليس فيها سوى شواهد صخرية لمرمى كرة قدم هشة لا تبدي مقاومة في ظهور أحشائها من شدة الركل بأقدام كبرت وفرقت أصحابها دروب الحياة وإتون حروب خطفت أرواح بعض من فريقهم الذي فاز ذات مرة على فريق الحي المجاور موثقاً نصره بصورة تذكارية علقها أحدهم على حائط غرفته مزهواً بعد أن كبرَ المصور حجم سرورهم مغالياً في طلبه بفتح أفواههم قائلين فاصوليا موقفاً الزمن عند تلك اللحظة بالضغط على زر الكاميرا.

صورة تذكارية

أضواء ساطعة متشابكة يصل شعاع نورها إلى السماء فأتقلص على نفسي في محاولة يائسة للحفاظ على الباقي من طاقتي، كائنات تتحرك في حشود، هياكل ومجسمات تنبعث منها الأضواء بشكل متباين، لا أفهم ما يجري تحتي! عالم غريب! أين كنت عنه؟! ولماذا صرفت تلك السنين الطويلة في دوران لا طائل منه في فراغ شاسع مهول، لماذا لم نهرب من ذلك المسار إلى هنا؟ أي حسرة أنا فيها؟ ليتك الآن معي يا صديقي وترى هذا الجمال الفريد الطاغي.

الجموع تتناقص حركتها في ذهاب وإياب، ممتعة شيقة الرؤية من فوق، الأضواء تأخذ بالتناقص والخفوت، أحدهم يسير متلفتاً خلفه، ما باله؟ فلأدنو نحوه، يتباطئ في خطاه بينما الآخرين من حوله في عجلة من أمرهم يشحذون الأرض كل في طريقه ومبتغاه.

ملامحه باردة شاحبة تنأى عما حولها في حياد متعجرف، يستجمع خطواته الهشة نحو زاوية مظلمة تضيق بطريق ترقد بيوته صامتة على جانبيه، تحفزها أعمدة مصابيح وافاها الأجل على النوم مبكراً. تتعثر خطواته، يلوي برأسه كل حين عن يمينه ويساره متفقداً، وعند باب بيت أستبيح مصباحه بحجارة بقرت بطنه، يقف وهلة، لا يفتح الباب! لكن بحذر ومهارة بالغة يطأ الجدار الطابوقي المتهالك... أمعقول ما ينوي فعله؟! يتلفع بكوفية مرقطة لا تظهر سوى عينين اكتنزتا حزن هذه الليلة، عينان زاد الاحمرار من جحوضهما وقسوة نظرتهما تحت جفنين مثقلين.

بيسر يجتاز أرض الحديقة الجرداء وهياكل أشجار الحناء اليابسة... آه عليك من زمن ظالم؟ كيف جُرت على هذه الحديقة وسرقت خضرتها وزهو أشجارها؟... وماذا عنك؟!... خلف أطلال تلك الزيتونة لطالما احتميت من أنظارهم في لعبة الاستغماية، زمن ابن ستين كلب، نافثاً عن صدره غبار سنوات بعيدة تلوح له مع دمعة وثبت من عينه فكفكفها على عجالة بطرف قميصه المتغضن البالي، زمن ابن ستين كلب... أنت الكلب لا الزمن، لا، الكلب وفي وأما أنت فلا... الزمن لا يرحم،

منتفضاً من شروده، لا وقت الآن لمثل هذه المشاحنات، أي معتوه أنا! متقدماً نحو باب البيت الخشبي وقد انسلخ لونه الصاجي وتشقق وجهه، ليرفع قليلاً أصيص فخاري ثقيل لم يتزحزح عن مكانه جوار الباب حتى بعد أن تيبست شجرة الرازقي على غصونها... من زهرة الرازقي ببياضها الخلاب المزروعة في خصلة الشعر أعلى أذنها عرفت أنها هي حبيبة سعدون قبل أن يشير إليها، كانا ثنائياً متناسقاً لولا... تلمس مفتاحاً سحبه بخفة العارف ومن ثم أداره بهدوء في قفل الباب الصدئ.

الحمد لله كل شيء على حاله، سكون يشبه الفجيعة، وصمت يمسك بالخناق... إهدأوا يا أولاد، ما بالكم؟! أقدمتم للدرس أم المشاغبة؟ هاكم لفائف الدجاج المقلي ولا تضيعوا الوقت في الجدال... مد بحرص رأسه نحو غرفة الاستقبال المعتكفة القصية، أشباح من بقايا أثاث ترفع قاماتها في العتمة... أين ذلك البهاء؟ متحسراً هازاً برأسه... كم أنت حقير ووغد؟ أليس أنت من جرد...؟! واستأنف سيره على أطراف أصابعه بخفة مستدلاً طريقه في البيت الذي ألفه منذ كان صبياً.

الخالة أم سعدون يتضاعف ظلها على الحائط رغم ضآلة جسمها وانكماشها في الجلوس على السجادة

بانتظار أن يرفع الأذان... ما تلبث شحمة أذني تلسعني حالما أشاهدك خالتي، رافعاً كفه نحوها متحسساً، قرصتك كانت موجعة، لا أعرف كيف لمحتني وأنا أخبئ تلك الساعة اللعينة في جيب دشداشتي الجانبي لتنقض عليّ زاجرة: سليم رجع الشي الي ضميته بجيبك لمكانه، مو عيب تمد أيدك؟ محكمة بسبابتها وإبهامها كملقط حديد على شحمة أذني التي ازرق لونها واحتقنت فيما أختلق عذراً مناسباً يهدأ من هلع والدتي، فكان الدبور هو الجاني...

تقيم أم سعدون وسط الصمت والعتمة بلا تأفف أو تذمر، تلوذ بالله، ولسانها لا يلهج إلا بذكره، لا شيء يعكر صفوها، استسلام وتقهقر جاء بعد سنوات من المعاناة واللوم والجزع، لم تتقبل رحيل ولدها الوحيد، فأحكمت على نفسها معتزلة الجميع في تصميم شديد على ترك الحياة التي سرقت منها ولدها، ظهرها يزداد تقوساً ونحولاً في انكفاء حزين، مثلما خارت قواها وارتخى كتفاها تحت دشداشة الكشمير السوداء، تراجع بصرها خلف نظارة سميكة تستدل بها فلا ترى سوى أشباح وأطياف ما حولها، وكثيراً ما بات يختلط عندها الواقع بالخيال، الأمس باليوم، تقعر خداها على فم غاب

عنه الكثير من أسنانه في رحيل لا عودة منه... كنت في الإجازة حين علت في الحي جلبة وأصوات تكبير وعويل نساء اقتحمتني عنوة من نافذة غرفتي الصغيرة الموارية، لم أذعن لفضولي وأكملت استلقائي على سريري الحديدي (القريولا) التي تصر وتتماوج تحتي مع أقل حركة، يلعن يوم الفقر لابو سنينه، عيناي تحدقان في سقفي الخفيض المرطوب الطلاء بضلوعه الحديدية البائنة، أحاول تجاهل ما يحدث خارجاً لكن الجلبة تكسر رتابة يومي فأخطف نظرة من النافذة، طرف تابوت مسجى يلفه العلم العراقي، نسوة تتشح بالسواد، أطفال مشاغبون حوله، رجال متجهمون، وأم سعدون تجري نحوهم حسيرة الرأس وقد شقت أعلى صدر ثوبها... يداها ترتعشان تحت ضوء المصباح العتيق... رجع الساعة مكانها وإذا بعد عدتها، ما أخليك تدخل لبيتنا... أين تلك اليد الفولاذية القبضة؟! أووووف كم الحياة غادرة ، ولا أمان لها؟!... وماذا عنك؟!

لولا أن الزمن قد ترك أثاره البليغة على البيت، لأيقنت أنه قد توقف هناك بينما تسترسل أم سعدون في مشيها اللاهث المتعثر نائحة مولولة خلف جثمان سعدون وقد ضاق عليه التابوت... كان الأكثر عافية في بدنه والأشد

قوة وضخامة من بيننا، حتى أني عجبت كيف للموت من حيلة عليه؟! سعدون، لا أفهم كيف غدرت بك تلك الشظية؟! كنا عصابة من الصبيان وأنت الأشجع بيننا الذي أنقذني ذات مرة بالقتال أمام خمسة تربصوا بي عند الخروج من المدرسة، منقضاً عليهم كأسد لاذوا بالفرار منه دون أن يفكروا ثانية بمضايقتي أو الاقتراب مني، وقد كافأتك حينها بسندويج فلافل لم يسد جوعك مطالباً بآخر هههه لم تسد نقودي ثمنه فاشتريته أنت لنفسك.

الأريكات الخشبية (الكرويتات) بالأغطية والوسائد ذاتها، ورق الجدران وقد نحل لونه وتمزقت أطرافه في انزياح قسري عن مكانها، مروحة السقف الأثرية الطراز الهندية الصنع برأسها المعدني المدبب وصفرة أذرعها الثلاثة، سجادة الكاشان بأزهارها الذابلة ونقوشها المتداخلة، لا بد أن قيمتها قد تضاعفت كثيراً، حاكاً ذقنه بسبابته مفكراً، لكنه على ما يبدو نفض الفكرة من رأسه مشفقاً على أم سعدون من أرضية الكاشي القاسية، لم تعد فيه مقتنيات ثمينة كالسابق... يا لك من نذل؟! كيف تجرؤ على قول ذلك؟! وأخذ يتخبط في أرجاء البيت بحثاً عن مبتغاه.

المؤذن بصوته الجهوري الرخيم يرفع أذان الفجر وأم سعدون تتأهب واقفة للصلاة، يتسع ظلها على الحائط أكثر من ذي قبل، ويبرز أنفها المعقوف الرأس... لا شيء، لا شيء ذو قيمة، فقط سجادة الكاشان، لكن كيف أطويها؟!... قبحك الله هل عدت إلى وسوسة شياطينك؟! وذهب باتجاه غرفة أم سعدون المظلمة متحسساً طريقه ببصيص ضوء يصله من صالة المعيشة حيث أم سعدون تجاهد مع نفسها في القيام والقعود مكبرة حامدة... صوت التكبيرات يرتفع وهم يهمون برفع التابوت الثقيل على أكتافهم نحو المصلى، فحرصت أن يأخذ كتفي مكاناً بينهم ودموعي تنهال بلا حسيب... من يصدق أني الضعيف البنية والدائم الشكوى والمرض أشارك في حمل جثمانك يا سعدون؟! صدق من قال أن الدنيا غادرة... ليست وحدها الدنيا من غدرت به، هل نسيت فعلتك وكيف راودتك نفسك للتقرب من حبيبته وطلبها للزواج لولا إقدامها على إهانتك بمقارنتك معه؟! كم كنت مثيراً للشفقة! وهي ترميك بتلك النظرة المزرية... امرأة غبية ما الذي ذكرك بها الآن؟!... وهل نسيت ازدرائها منك؟ وصوت ضحكتها الهازئة وهي تقول: من قلة الخيل ركبوا على الجلاب سروج!... كانت مندفعة

سليطة اللسان... أنت من جرها لذلك عندما أقبلت على سرقة ما لغيرك كعادتك... تقدمت لطلب يدها للزواج وليس سرقتها، فاتقِ الله ولا تظلمني... لولا أنها كانت خطيبة سعدون ما كنت أقدمت على طلبها، أتنكر أن أبلغ أمانيك كانت أن تحظى بحياته وكل ما لديه؟ وسامته، جاذبيته وحتى معجباته وهو يتنقل من واحدة لأخرى بينما أنت تصطلي بنار المراهقة والعوز... لا أفهم من أين تأتي بهذه التصورات المريضة؟ ما جال في خاطري يوماً ما أسمعه منك الآن!... أنت فقط تنكر الحقيقية... أي حقيقة هذه؟ كم أنت ملعون وابن كلب أيضاً.

تنهي أم سعدون صلاتها لتجلس على السجادة متأملة الذؤابات المتطايرة حول نور المصباح الشحيح، تستغرق في شرودها ولا أمل قريب بقيامها إلى سريرها، فيجلس في العتمة المقابلة لظهرها متحيناً الفرصة، يمصمص شفتيه، يطقطق أصابع يديه بهدوء العارف الصبور رغم أن تباشير النهار قد بدأت بالظهور... أيها القذر حتى السجادة لن تسلم منك! حكم ضميرك لمرة واحدة، لمرة واحدة، فأخذ يتفحص قساوة البلاط وصلابته... فلتجلس على الكنبة... والصلاة؟ عض شفتيه حاكاً الشامة السوداء الماكثة على جهة أنفه اليسرى كذبابة تثير

التقزز عند أكثر الناس حساسية ومراعاة، فما بالك بسلوى وسخريتها الشديدة منها حينما قاطعته بمكر قائلة: فوگ خشمك ذبانه، ملوحة بيدها أمام وجهه الذي تخشبت وجمدت تقاطيعه على لسان شُل في حلقه... فلتقم صلاتها على أي خرقة... وغد.

لم يكف عن التفكير بسلوى والرغبة في نوالها رافضاً جميع النساء اللواتي اقترحتهن عليه أمه، وكان في كل مرة يجد عيباً أو عذراً يمنعه من الإقدام على الزواج رغم أن سلوى قد طلى الشيب مفرقها وتجاوزها أولادها طولاً، لكن المفارقة أنها بالأمس القريب قد ترملت شاعلة فيه تلك الرغبة الدفينة مؤججة نارها من جديد... لمحت ظهر عباءتها في سوق العشار صدفة، تسارعت نبضات قلبي ودب الضعف نحو قدمي وأنا أحثهما على اللحاق بها، نعم هذا ظهرها، وهذه مشيتها ولو بدت متثاقلة بطيئة بفعل الوزن الذي اكتسبته على مر تلك السنوات، واثق أنها هي، فوسع خطاه مقتنصاً نظراته إلى جانب وجهها الأبيض البيضوي وقد اعتلاه بعض التعب والخطوط... ما تزال جميلة كسجادة كاشان.

بعد انتظار محموم تستلقي أم سعدون بجذعها العظمي النحيل على السجادة وتخلد إلى النوم في

تكاسل وعزوف بات شبه يومي عن الذهاب إلى سريرها... هو يوم منحوس من أوله، منحوس من أوله وكيف لا يكون كذلك وأنا أصطبح بوجه صاحب البيت الذي لم يؤخر فرصة في المطالبة بإيجار الغرفة (البلوكية) المهجورة التي كانت في سالف عهد دكان بقالة تجتاحه الجرذان كل حين، الوقح لا يكف عن تهديدي بالطرد منها وكأني أقيم في إحدى غرف الشيراتون... لو كنت نزيهاً نظيف اليد لما طردت منه شر طردة بعد كثرة الشكاوي والتبليغات عن فقدان النزلاء لأشيائهم... لم تأمن لي أم سعدون بعد تلك الحادثة وباتت ترمقني بعيني صقر كلما دخلت إلى بيتهم برفقة سعدون وأولاد الحي، عذبتني نظراتها المتوعدة المتأهبة وأنا أحاول الإثبات لها أنها كانت غلطة ولن تتكرر... لكنها تكررت وتكررت... ربما هي السبب، لم تعرف الصفح والغفران لصبي صغير وعاملته طوال الوقت كلص يجب الحذر منه والحيطة، كانت ثمينة بحزام فضي لامع وميناء سوداء مرصعة بحجر كريم وعقربين فضيين، أدهشني جمالها تشبه إلى حد ما ساعة سعدون التي يتباهى بها أمامنا مشمراً عن ذراعي قيمصه حد المرفق... لعن الله الفقر ونزق الفقراء.

كم أبقى منتظراً؟ وكم يطول الوقت بي هاهنا؟ يا الله سيطلع النهار وأنا ما أفتأ أراوح بين رباطة جأش وصبر ينفذ، نهض من عتمة زاويته يتطلع من النافذة في رجاء صامت وقد صحا ديك الجيران من رقاده... وما الذي ينتظرك خارجاً؟ أولادك الصغار أم زوجتك الجميلة المحبة؟ في لحظاتها الأخيرة على سرير المستشفى المقفر ودعتني بعينين حزينتين وهي تصر على يدي بيد ضعيفة شاحبة يتباطأ نبض عروقها مثلما تعثرت كلماتها القليلة على لسان ثقيل هامسة: تزوج يا وليدي، لا تبقى وحيد. وكان أن فاتني قطار الزواج كما يزعمون... آآآه يا سليم وأبداً لم تتخذ القرار السليم، أنت من يستحق الموت لا هو، كان أجدراً بالحياة منك، أظن، لا بل أجزم أنك فقدت دافعك أو إندافعك سمه ما شئت في الحياة بموته، المسكين كان هاجسك المرعب ومثاراً لحسدك البغيض، فيا لروحك البائسة البشعة!... أرجوك كفى، أرجوك، تتصاعد خشيته من افتضاح أمره فيهم بالانسحاب على طرف أصابعه خالي الوفاض لكن فجأة ترتعد فرائصه متسمراً في مكانه وقد غادر الدم عروقه على حشرجة صوت مبحوح واهن: رائحة طمعك هي ذاتها لم تتغير، فخذ بيدك هذه المرة صورتكم الجماعية،

أظنك تعلم أين تجدها معلقة، احتفظ بها فهي الأغلى والأثمن، ولا تنسى أن تقفل الباب خلفك، ففي المرة الماضية تركته مفتوحاً.

عاد محملاً بعلبة كارتونية سميكة وثقيلة مع بهجة أنارت تقاسيم وجهه وأدخلت الاستغراب على قلب زوجته الشابة وهي تتساءل مع نفسها عن ما بداخل العلبة التي أجلسها قربه بحذر كبير ناشداً إياها الحيطة، لكن الزوجة لم تأبه لتحذيراته المسرفة وانساقت لفضولها مقتربة في نية فتحها الآن وليس المساء كما رغب هو، وكي ينعش فضولها أكثر طلب منها أن تأتيه قبلاً بمطرقة ومسمار، فذهبت نحو المطبخ تغمغم باحثة في أحد الأدراج عن بغية زوجها الذي يستظرف ظله معها قبل أن يكشف ما في العلبة، ثم عادت تشحذ بنعلها متذمرة: هاك ما طلبت، فهيا افتحها الآن.

- على رسلك يا امرأة، وأخذ يزيل الأشرطة الصمغية وقطع الفلين المحيطة بهيكل خشبي صقيل يرقد في بطنه الزجاجي رقاص ساعة معدني فضي لامع وفي الرأس تستقر ساعة

بمينا بيضاء وأرقام سوداء وعقارب حمراء لم تدب فيها الحياة بعد.

علقها على الجدار بعد أن ضبط الوقت هامساً بفخر البسطاء: هذه الساعة ستبقى ذكرى منـي لأولادي وأحفادي من بعـدي، سـتكون بركـة هـذا البيت الذي سيسعنا جميعاً.

ساعة جدي

لا أعتقد أن هناك المزيد من الوقت، أين كنت من هذا الجرم؟! لماذا الآن بعد أن أزف العمر أحظى بهذه الفرصة القصيرة النادرة! درت آلاف السنين في عتمة الفراغ وها أنا أكتشف هذا العالم المختلف، حياة متقدة متنوعة التفاصيل كائنات مختلفة لم أرهم قط من قبل، ليتك كنت معي كي نشهد هذه السويعات.

ماذا جرى مع ذلك البيت؟! نصفه محطم مظلم والآخر ينتظر دوره بحسرة وخذلان أمام كتلة حديدية ضخمة تختلف في الشكل عن الأخريات التي لمحتها تسير، فلأقترب وأبصر ماذا هناك؟ هدوء وسكون يطبق قبضته على المكان إلا هذا المجسم المعلق ما زالت تدب فيه الحركة، ودنا النجم العجوز أكثر من النافذة المواجهة للضوء الساقط على الساعة الخشبية العتيقة بعقاربها اللاهثة وبندولها المستغيث.

لا أحد من أحفادك يا أبو محمود بادر إلى رفعي عن الحائط والاحتفاظ بي، لا أحد، هل غفلوا عني وبت شيئاً لا قيمة له؟! يا لها من حسرة كبيرة أن تكون مهملاً، قطعة خردة قديمة من عهود مضت وبادت كنت فيها قرة عين أبو محمود ورفيقة أم محمود والبئر الذي ترمي إليه بأسرارها وكل مخاوفها، ما تأخرت يوماً عن رد الغبار من عليّ برفق ورهافة شابة تمتلأ بالحياة والأمل في عائلة سعيدة متحابة، شاركتها أحلامها وصليت معها أن يحمي الله زوجها الذي انهمرت عيناه بالدموع فرحاً بقدوم ولده البكر محمود، وغبطته الشديدة ببنته صفية التي أطلت عليه بوجه عاجي اللون فيه من ملامح والدته المرحومة كما أومأت الداية مسرورة وهي تتلقى أجرها مضاعفاً حلاوة السلامة كما في المرات الخمس.

رمقني بعينين منتشيتين فخورتين مشيراً نحوي من بين الساعات العديدة المحنطة على حائط المحل، كنت أنا وحدي من فاز بقلبه الرؤوف الطيب، فأدركت وهو يعلقني بعد تأكده من ثبات وقوة المسمار الذي سيحملني، أنني أخيراً وجدت المنزل الآمن بعد رحلة بحرية شاقة امتدت شهوراً، وعرض في مزادات لا يقدر روادها قيمة الأنتيكات وما تحمله معها من تاريخ

وتجارب حسية وعاطفية حيث لا يرقى حدود مخيلتهم سوى أننا جمادات لا تشعر ولا تفقه معنى أن أمضي شهوراً تحت الغبار وحيدة في بيت مهجور كبير رحلت عنه مالكته العجوز سوى نزق البقاء، فتحاملت على عقاربي مشجعة مانعة استسلامهم لموت مؤكد في أسر صندوق لا يدخله نور الشمس بعدما تم تصفية وتعزيل أثاث سيدتي المسكينة ليباع في المزادات ومحلات الخردة.

آه من تلك الرحلة القاسية الطويلة وتلك الأيدي الخشنة التي مرت عليّ متفحصة لاوية البوز غير مثمنة لقيمتي حتى حظيت بأبو محمود الذي تأملني بعين العارف ممرراً يده بلطف الأب والرفيق فكان أول من تنبه إلى نزعتي العاطفية الحساسة... ذات مساء عاد من سوق العشار بصحبة ساعة بلاستيكية حديثة الطراز وعلقها في غرفة النوم على وقع غمغمة ومعارضة أم محمود لوجود ساعة أخرى ما دامت الساعة الخشبية في منتصف البيت تعمل على أكمل وجه، لكنه لم يصغِ لها، فاحتلت الساعة الجديدة حيزاً من حائط غرفته وثقباً في قلبي، عندها تراجع نشاطي ودقة حساب دقائقي، فما الجدوى من التفاني وهناك من يعوض عني! وتتطلع إليه

العيون! حينها فقط أدرك أن خطباً قد حل بي ونزع تلك الساعة الغبية وهو يسترضيني بصوته العذب الهامس: لن تكون هنا ساعة أخرى غيرك، هذا وعد فكوني واثقة عزيزتي.

وكأن الزمن يكرر نفسه ويعيد السيناريو ذاته، فها أنا ثانية أنتظر وسط الركام حتفي بعد ساعات وقد توعد هذا (الشفل) الضخم بتهشيمي قطعاً صغيرة، ما كان عليّ الوثوق بهذه الحياة وقد غدرت بأصحابي قبلاً مني... ساعتي العزيزة لن أتأخر عليك، هو شهر واحد لا غير، أخيراً حقق الله أمنيتي بحج بيته، أترك البيت في أمانتك، كان وجهها يتلألأ فرحاً مستبشراً بينما أبو محمود يسحب حقيبتها أمامها، راسلة بقبلتها الأخيرة لي وهي تهم بالمغادرة.

استمعت إلى أخبارها اليومية من حديثها مع أبو محمود وكلي شوق ولهفة لعودتها التي تأخرت لأجل استكمال الأوراق الثبوتية وتواقيع شتى وتصاريح خروج ودخول لتأتي مسجاة في تابوت خشبي ساكن كئيب رقد وسط البيت أمام ناظري وحوله الأولاد والأحفاد يجهشون بالبكاء، ليغشى البيت من بعدها صمتٌ قسريٌ لا يرخي طوقه سوى صوت المنشاوي منبعثاً من راديو

عتيق هو الآخر لقى حتفه اليوم بذراع الشفل الفجة الفولاذية، صديقي المسكين لا تخش في صباح الغد سألحق بك، ما من مبرر لبقائنا وأحبتنا تحت التراب جميعهم... ربما لم تعرف كم انفطر قلبي وشعرت بالغيرة حين شاركتني اهتمام الزوجين الشابين في الإنصات إليك، لكني مع الوقت أدركت أنك لا تنافسني على حبهما متقبلة وجودك، فالأنانية ليست من طبعي، كما أن الأصوات الرخيمة التي تصدر منك شدتني إلى معرفة ما يدور حولي حيث أم محمود مشغولة تعد الغداء على صوت الأخبار والأغاني، زمن جميل لن يتكرر، لن يتكرر بوقعه الهادئ وسطوته على الأرواح.

يرقبها النجم العجوز من نافذة الجدار المتهالك مع بقايا النور الساقط عليها فلا يعرف أنها هي الأخرى تعيش ساعاتها الأخيرة في استسلام وادع لقدر محتوم لا يجدي التهرب منه أو مداهنته، لا شيء في هذا المنظر الصامت الكئيب يستفزه وهو القادم من طرف المجرة البعيد خشية الموت وحيداً، الوحدة موت بطيء يتسلل بهدوء غبي ثقيل نحو الفؤاد فيقبضه، لا يعرف كيف يروح عنها أو يستدرجها خارج صمتها سوى مراقبتها عن كثب في ليلة تناور صبحاً قريباً وخطوات صاحب الشفل

القادمة في طريقها نحو البيت الذي يوشك على إكمال هدمه وتسويته بالأرض كما طلب منه الورثة.

ترتعش الذكريات في خاطري، تتزاحم وتتباعد لكن الذكرى الأكثر مرارة وقسوة تلك الليلة الباردة الداكنة حينما سقط أبو محمود ولم يجد اليد التي اعتادت تلقفه، فظل مغشياً عليه حتى وافته المنية يائساً تحت مرأى من عجزي وذهولي، وآه كم استبد بي شعورٌ بالعار! وإحساسٌ بالضعف قوض من فخري واعتدادي بنفسي، فما قيمة ساعة أثرية سويسرية الصنع أمام يد تسعف أبو محمود من نوبته! مدركة ببالغ الأسف أني قصيرة اليد واللسان والحول والقوة، فما أبشعني من ساعة! وما أقسى تلك الليلة وما تبعها من ليال أخر وجثة أبو محمود ترزح أمامي ساكنة لا تجذب سوى النمل برائحتها ولوعة الذكريات إلى روحي المتعبة الممزقة.

ترك نبله وتعلقه المدهش بي أثراً بالغاً في نفسي التي خاب ظنها في صدق عواطف البشر، فبرغم ثقل وتيرة الحياة وتزايد صعوبتها بعدما تهالكت أغلب العوائل تحت كنف العوز والفقر الكريه في مساومة غير مجزية على أثاث بيوتهم دفعاً لمارد الجوع عن التهام صغارهم، لكنه وقف كالطود أمام سمسار الأثاث وسيل لعابه وهو

يتفحصني بدقة المحترف الخبير بقيمة وجودة صناعتي، عارضاً مبلغاً يعد كبيراً في سنوات القحط تلك، مفاوضاً أبو محمود تلو المرة على بيعي له حتى نجح بإقناعه فقضيت ليلتي خارج أسوار هذا البيت حزينة منكفئة على حائط غريب تنافسني إليه أشياء شتى من ساعات بأشكال مختلفة ورؤوس غزلان فاتها أن تغمض عينيها قبل نحرها ولوحات تشكيلية لرسامين غمر العوز موهبتهم فالتجأوا إلى تقليد الرسومات العالمية ونسخها بألوان رخيصة.

شعرت بالوحدة المطبقة في ذلك المكان رغم ازدحامه، فأصابني الإعياء وأنا أفكر بلون الحائط الجديد الذي سأصلب على مسماره، تداعت قواي مستذكرة يدا أم محمود الناعمتين العطوفتين كأم ودود، فكيف وافقتِ على بيعي؟ ومن يوقظك لصلاة الفجر؟ ويؤنس نهارك؟... لديها المذياع فلا تخشي عليها... المذياع ذلك الثرثار لا يملك روحاً كروحي... كفاك اختيالاً بنفسك وأنت مجهولة المصير... نعم كنت أظن أنني الأغلى لديهما فيا للنكبة!

تحاملت على نفسي صابرة متماسكة وقد ضج قلبي بعشرات الصور البعيدة المنسية، فلمعت من بينها صورة

صانعي الرجل الماهر الذي كان مهووساً بحرفته إلى حد بالغ التطرف والجمال، ولا أحسبني أغالي في خيالاتي حين أقول لنفسي أنه قد وضع في كل ساعة صنعها جزءً من روحه وكنت أنا الأخيرة التي أفنى فيها جل وقته وشغفه في طلب شفيف لنوال رضا حبيبته التي أوصدت بابها في وجهنا ولم تقبل بي هدية لها في تعبير سام عظيم عن مدى حبه لها وشغفه بها، متهمة إياه بالأنانية والجموح الأشد في تخليد اسمه بين أمهر صناع الساعات في سويسرا، فقذف بي إلى النهر كتهمة فاحشة وذنب لا يرتضيه لنفسه، يا للبشر كم خذلوني؟... وقد خذلوا أنفسهم قبلك، فلا تستائي واخلدي إلى النوم مع هذه الجوقة العجيبة.

اقشعر الحائط المائل بحمله مع خيوط الصباح الأولى إثر وقع دقات أبو محمود القوية المتكررة على باب يفقد توازنه مرتجاً مع كل دقة، وصدى صوته المرتفع يوقظ صمت وعتمة الغرفة التي ينام في ركنها القصي بائع العتيق بأسماله الرثة وقد بدت امتداداً لجسده المسحوق تحتها، لينهض مفزوعاً نصف نائم وغائم ملاقياً وجه أبو محمود الذي غالبه النعاس وطال ملامحه التعب والندم لكنها لم تخفف من حماسة طلبه المستعجل في استعادة

ساعته الأثيرة بعد أن سلمه نقوده بصورة مباغتة باحثاً بعينيه عن ضالته بين موجودات الغرفة، كدت أناديه: أنا هنا، أنا هنا لولا أنني خرساء، لكني واثقة أن صوت نبضي المتسارع قد طرق سمعه فتسمرت عيناه المحمرتان عليَّ قاطعاً خطواته نحوي شاداً بي عن ذلك المسمار وعلى عجالة خرج بنا من تلك الغرفة المقفرة وصاحبها الذي ظل فاغر الفم على لسان انحرفت كلماته عن المسار: تعال يا خويه، أوگف شوي، خل نتفاهم... تعال أزيدك بعد فلوس... تعاااال...

لن أنجو هذه المرة من ذراع الشفل الفتاكة... ألم تكتفي من الحياة؟! عمرك ناهز ثلاثة قرون، آن لك أن تتحرري من علة وجودك وتنسلخي من قيد عتلاتك المشغولة بتقطيع الوقت وهدر بركته إلى ساعات ودقائق في دوران لا نهائي كفيف، احمدي الله على سعة كرمه معك في مرات عديدة... نعم كنت على وشك الغرق لولا أن أحد الصيادين تلقفني بقاربه الصغير بدلاً عن السمكة التي لم تغمز لها السنارة عائداً بي إلى زوجته وهي الأخرى ولولت مستاءة لمقدمي مفضلة السمكة عليّ، يا لهن من غبيات؟! ولم تدخر من وقتها وسعاً وباعتني بثمن بخس إلى تاجر الأنتيكات الذي سارع إلى

تجفيفي من الماء وحفظي في مكان جاف آمن بانتظار زبون ثري يقدر قيمتي الحقيقية.

يستفيق ديك الجيران وعلى صياحه تتثاءب ربات البيوت في خدرهن الدافئ طمعاً في دقائق إضافية يحلو معها الحلم وينضج، ويرهقني الانتظار وصوت الشفل تتعالى زمجرته، من النافذة المحطمة يبرق سنا ذراعه قادماً نحوي، ألقي نظرة أخيرة على المكان المحطم ولا أرى سوى الذكرياتً، هناك على الكنبة كان يجلس أبو محمود قبالة شاشة التلفاز، وفي ذلك الركن يجتمع الجميع حول السفرة، وقرب مدفأة علاء الدين النفطية تكور أم محمود الصوف وتغزله لأولادها المتحلقين حولها بدشاديش وبيجاما البازا المقلمة السميكة.

ركن من الحائط المقابل تتكوم أحجاره وتحتها صورة العائلة يتهشم زجاجها، ويرتفع الذراع الحديدي ليحط ثانية بكل جبروت وقوة عليه، البشر يستحضرون الشهادة في هكذا لحظات وأنا استحضر الأرواح والذكريات بانتظار الضربة القادمة أن تهوي عليّ، تقدم هيا، هيا تقدم، أنهِ ما بدأته، هيا تقدم بعجلاتك الكبيرة السوداء المتغطرسة، ترتفع الذراع مناطحة السماء، أتجشأ اللحظات الأخيرة، صوت بعيد ينادي يقاطع ضجيج

الشفل، يعترض طريقه: توقف، توقف، توقف، هذه ساعة جدي!

لفيف من وجهاء القريـة، شـيخ الجـامع، تـاجر التمور، مدير الناحية، قائد الشرطة، شيوخ عشائر وأفخاذ لزموا مكانهم جالسين في غرفة الضيوف الواسـعة الخارجـة عـن البيـت الكبيـر بنوافـذها الواسعة العالية وسقفها بقبتـه نصـف الكرويـة الممردة الرخاميـة البيضـاء والتـي لا تقـل جمـالاً وجودة عن رخام الأرضية المغطى في أجزاء منـه بسجاد الكاشان الفاخر، حارت أبصار الجلـوس في تقصـي الجـدران المزخرفـة المطعمـة بقطـع الكرسـتال والمرايـا الصـغيرة اللامعـة المتوهجـة المصفوفة على يد صناع مغاربة جلبـوا خصيصـاً لعمل هذه التحفة المعمارية.

تلعثم شيخ الجامع نـاظراً إلـى قائـد الشـرطة طلباً في عونه، فغض بطرف بصـره نحـو المـدير الذي تأتأ وهمهم على مبادرة أحد الشيوخ حـين قال بنبرة خجلـى لا تتفـق وشخصـيته العنيـدة: جينا اليوم نطلب يد كريمتكم لولدنا عدنان، وإن شاء الله أحنا ما نقصر وياكم بأي طلب.

عم الصمت ثواني قليلة ثقيلة قبل أن يتفوه أحد الشباب الحضور راداً بصوت جهوري بان الضيق والانفعال على نبرته: ما عدنا بنات تطلع خارج العائلة وأولاد عمومتها موجودين. فزادت سماكة الصمت وخيمت الخيبة على الوجوه التي همت بالخروج متعجلة وعدنان يلتمسهم العذر والصبر.

عاشقان

عجيبة حياتهم هذه! لا أفهم ما يدور حولي! ولماذا هم في ضيق وقلق؟! يتسابقون نحو النهاية ذاتها! النهاية ذاتها التي تحكم كل العوالم والمجرات، الفناء ليس سواه، هو الحقيقة الأكيدة المطلقة لكل شيء كل شيء، بت فضولياً لكن ما عساي سوى أن أتلصص من تلك النافذة المشرعة بضوئها الساطع على عتمة الليل متحدية واثقة، فيلمح شابة جميلة تجول أنحاء الغرفة المتسعة بأثاث راق عصري، متوجسة مضطربة تلجأ إلى النافذة كل حين والهواء البارد يملأ رئتيها وكالأسياط يمر على وجهها المحتقن ورأسها المعذب بهواجسه، تقلب نقالها تنتظر، تكتب بأصابع مرتجفة متوترة رسالة نصية، تؤجل إرسالها، تعاود السير بخطوات شاردة ومضطربة، ترتبك أفكارها، تنزع عنها جلبابها الأسود رامية به نحو السرير ومعيدة حقيبة يدها إلى خزانة الملابس، تمسك نقالها ثانية، تكتب بضعة جمل، تعيد قراءتها أكثر من مرة،

تمحو ما كتبت، تتشابك الظنون وتتعقد، تغمض عينيها، تعصر رأسها على فكرة واحدة، فكرة واحدة تستولي على كيانها فتشد جلبابها وترتديه ثانية، تطل من النافذة نحو الحقل الواسع والجنائن المحيطة بفيلتهم الكبيرة، ما يزال مصباح غرفة الحارس مناراً، والبوابة الحديدية العالية موصدة، هدوء يخيم على المكان خارجاً إلا من حفيف أشجار النخيل وظل الحارس يدور متقصياً... هذا الملعون كل همه مراقبتي والتجسس عليّ، تماماً مثل عيون الكاميرات البذيئة التي ما تلبث تلاحقني، جميعهم يلاحقونني، يتجسسون عليّ حتى حين أخلد إلى النوم، من تحت الشراشف تترصدني عيون كبيرة نارية ملتهبة، ليتني أستدل على مكانها، أنا واثقة من وجودها هنا معي، واهتاجت واقفة تبحث بين الأثاث وفي الزوايا عن كاميرات مخبأة... أدرك تماماً أنهم يراقبونني كل الوقت، اللعنة عليهم، اللعنة.

لم تمد يدها إلى طعامها وبطنها تقرقع لا من الجوع بل من الخوف الذي يسري دبيبه في أوصالها محيلها إلى كائن بائس ضعيف هيستيري مشتت الإرادة والتفكير، فجلست على سريرها شادة ساقيها نحوها بيدين تعبتين

وساندة رأسها الثقيل علي ركبتيها في انكفاء حزين متشبث، لكن قلبها يغلي في ليلة كانونية مشرعة النافذة.

الدقائق ثقيلة تمضي على ظهور عقارب مماطلة كسلى... بعينيه الزيتونيتين وقميصه الضارب إلى الخضرة في توافق سحري لافت مع لون عينيه التفت نحوي مجيباً حين بادرته على عجالة من أمري بالسؤال عن الوقت: التاسعة إلا عشر دقائق، خفق قلبي وسرت قشعريرة على جانب رقبتي وذراعي، لم أدرك سبباً لها فأسرعت الخطى باتجاه باب القاعة أداري حرارة صعدت إلى خدي وخضبته حمرة كما ظننت، لحقت بالمحاضرة لكني ما فهمتها، ذهني ما يفتأ يجتر تلك اللحظات مشوشاً، يا لطلعته البهية!... يخايل النعاس جفنيها المرهقين لكن قلق الانتظار والترقب يطردانه، تطالع نقالها بحثاً عن رسالة جديدة وما من رسالة سوى الصمت... "أنا على اتفاقنا سأكون هناك في الموعد فلا تتأخر" بأنامل مرتجفة نقرت حروفها وبعثتها إليه.

نهضت نحو النافذة تستدل من بين أشجار النخيل الباسقة الكثيفة على الحارس الذي ما يبرح يلف حول البيت على غير عادته في هذه الساعة بالذات، يا إلهي ماذا أصنع؟ هكذا سأتأخر على الموعد، ما باله الليلة لا

يـدلف إلـى غرفتـه لتنـاول عشـائه! سـأنتظره ربـع سـاعة أخرى... في نهاية محاضرة تقوية درس الرياضيات وعند بوابة المدرسة لمحت العينين ذاتها متهللة متسعة لامعة كنجم وما لبثتا أن اختفتا مع الجموع الواقفة عند الباب، هـل هنـاك وسـامة بهـذا الشـكل الأخـاذ؟ وعينـان بهـذا الصـفاء؟ لكـن مـن يكـون؟... انتبهـي لدروسـك، واتركـي هـذه السـنة تمضـي علـى خيـر يـا كسـولة... هههـه لسـت كسولة إلى هذا الحد فلا تبالغي... لـن أبالغ لكـن انتبهـي إلى دروسك.

مضت ربع ساعة ومعها خمس دقائق أخرى والحارس عاد إلى كرسيه، لا أدري ماذا دهاه؟ أي حظ لعين هـذا يـا رب؟... سـأكون العـروس الأجمـل بالفسـتان الـذي اتفقنـا عليـه ذات مـرة، لا تقلـق يـا حبيبـي لا أزال أحفـظ صـورته والعنوان... أمسكت نقالها بيدين مرتعشتين وكتبت على عجل رسـالة مقتضبة آخـرى بعثتهـا على الواتسـاب، لفـت رأسها بوشاح أسود، وقد تأبطت حقيبتها وفردتي حذائها الرياضـي الخفيـف متوجسـة تنظـر حولهـا... لـن أدعكـم تمسكوا بي، لن أدعكم، أطفأت المصباح مضللة ومن ثـم أغلقـت بهـدوء بـاب غرفتهـا المجـاور إلـى غرفـة أمهـا المستلقية على سريرها بعد يوم عمل شاق، وعلى أطراف

أصابعها قطعت متعجلة الصالة الكبيرة ومنها إلى المطبخ حيث بابه الخلفي يشرف على حقل لا تبان حدود سياجه حيث هي واقفة... عليّ أن أجري إلى هناك، ما هذا الحظ التعس! ولكن لن أدعهم يمسكون بي، وبين أشجار النخيل والعتمة تعثر طريقها.

لا أفهم ما بال تلك المخلوقة؟ تتلفت باضطراب نحو البيت الذي خرجت منه للتو، وهرعت تجري، هذه ليلة غريبة حقاً! هل جميعهم هكذا! مرتبكون خائفون! تناور في جريها، مرة تظهر ومرة تختفي تحت رؤوس تلك الأشجار العالية الساكنة، ما من أمر ورائي سأتبعها وأرى ما هي فاعلة، ليلة غريبة بحق!

الطين يثقل حذائي ويعيق سيري، ذلك الأحمق، لولاه لكنت الآن قد وصلت الشارع الرئيسي وليس الخوض في حقل غسله المطر بالأمس، تغور قدماي مع كل خطوة، وهذا جلبابي قد علق به الوحل هو الآخر، ما هذه المصيبة يا رب؟... إذن ارجعي، أنت في أول الطريق، ارجعي إلى البيت قبل أن يلمحك أحدهم فيأخذوك إلى الطبيب... لا أريد الذهاب إلى الطبيب لست بمريضة، لست بمريضة إلا تفهمون! أنتم وحدكم المرضى، أرجوك أمي لا تدعيهم يأخذونني ثانية إلى ذلك المكان،

أرجوك أمي... دعك عني، لقد حزمت أمري وانتهى، فلا تقفي معهم ضدي... لكن لماذا لا يرد على رسائلك؟!... لا بد أنه مشغول أيضاً وعلى الأكثر قد سبقني إلى گراج ساحة سعد، كنا سنتزامن في الوصول، يا لجمال تلك اللحظة! لولا ذلك الحارس الغبي، كيف غفل اليوم عن كرشه واستمر يتفقد المكان! يا الله ماذا أصنع هنا وسط هذا الوحل؟ وكيف أعبر النهر؟... قلت لك ارجعي قبل فوات الأوان، النهر عريض والماء بارد، فلا تكوني مجنونة، وقفت وهلة حائرة تنزع الطين عن حذائها بشحذه على جذع نخلة، كيف أعبر النهر بهذه الملابس؟... كان ثوباً أبيض وغرفة بيضاء باردة ضيقة تطل بنافذتها على حديقة اصفر زرعها، سرير حديدي أبيض لا أنفك عن ملازمته دائخة مرهقة، علب أدوية وقوارير يتعاقبون في إجباري على تناولها أولئك الأوغاد، ما كنت يوماً مريضة! إفهمي يا أمي لست بمريضة أنا فلا ترغميني على أخذها كل يوم... ليتك تموت يا أبو فلاح، أين أنا من هذا النهر؟ لوت فمها ثم زمته بعدما شدت جلبابها إلى وسطها، ثانية طرف بنطالها حد الركبة كذلك شمرت عن ساعديها الصقيلين، من كان يظن أن أعاود الخوض فيك بعد هذه السنين!... لقد كبرت يا هبة وما

عاد الخوض في النهر واللعب مع الصبية يناسبك، فلا تحرجيني مع عمك.

- أووووه عمك، عمك، فليهتم عمي بشؤونه ويتركنا.

- عمك في مقام أبيك فلا تتحاذقي.

وأين أبي؟ صورة فوتغرافية واحدة تطاول الزمن عليها لكنه عجز عن درء رغبة أبي في المواصلة بحملي بين ذراعيه متأهباً للذهاب إلى حفر الباطن بملابسه العسكرية الكاكية، أمور كثيرة ما كانت لتحصل لولا غيابك يا أبي... لا أصدق نبرة العطف والحنان التي يسبغها على صوته حين يحادثني، كذلك لمعة عينيه، يا الله كم تبدو زائفة يا عمي! تستحق الأوسكار في أدائك التمثيلي والتظاهر بحبنا والخوف على مصالح أولاد أخيك وزوجته التي حاولت استمالتها دون طائل: لا يجب أن تبقى امرأة شابة مثلك دون زوج.

خلعت حذاءها فوطأت الأرض بقدمين مرتجفتين تسللت بهما نحو جرف النهر بين الظلمة والأدغال، رفعت فردتي الحذاء بكف وتحت إبطها الآخر شدت على حقيبتها، آآآخ بارد ولزج أي ورطة أنا فيها؟!... أدركت حجم ورطة المضي في تناول الدواء، فادعيت تناوله من يد أمي ومن ثم بصقه، لا أدري كيف اقنعها

إخوتي بمرضي المزعوم... قاع النهر غير المستوية ترفع ذبذبات توجسي، تنغمس قدماي أكثر، الماء أشد ثقلاً وبرودة في الليل، لكنه يسارع إلى ركبتي، تبتل ملابسي، يصعد إلى فخذي... ماذا دهاك؟! هيا اعبري فلا مجال هنا للتفكير والتأمل... أخشى أن يصعد الماء حد رأسي، ما كنت أظنه بهذا العمق، فمهلاً عليّ... ليس أمامك من طريق سواه فهيا ولا تترددي، استنهضت همتها دافعة بقدميها الخدرتين شاقة وجه الماء... لم يبقَ شيء هيا، استدارت بحركة لا إرادية نحو منزلها مستحضرة لوهلة دفء سريرها فنزعت تلك الخاطرة مؤمنة واثقة أن دفء الحب هو الأبقى والأثمن.

لا أكاد أفهمهم! لماذا تقف معرضة ساكنة؟ مخلوقات عجيبة بأطر غريبة لا أدركها ولا أدري من فينا حياته أشد قسوة! وجميعنا في صراع، صراع تحكمه غريزة البقاء ولعنة التشبث بالحياة، أمعقول أننا نمضي نحو أقدارنا مهما أوهمنا أنفسنا بتغيير الطريق؟!

لن يصدق عدنان كم استغرقت من وقت في عبور هذا النهر الراكد، ملعون أنت يا أبو فلاح، جاسوس آخر يراقبني، لولاك لكنت على وشك الوصول إلى الگراج، لكن الآن كيف أذهب إليه مع هذا الوحل؟ وسارت في

الحقل المجاور محتجبة خلف أشجار النخيل وأعراش القصب عن خيالات وأطياف تطاردها وأصوات بعيدة تلهث خلفها، فتشحذ عزيمتها التي قرضها البرد والوحل... كم عليّ السير؟ وما من أثر قريب للشارع الرئيسي... ستمضين ليلتك هنا أيتها الغبية، هذا إن لم تأكلك الذئاب التي أخذ صوت عوائها اقتراباً، هيا اسرعي ولا تتخاذلي... في الأسبوع التالي فتشت عن تلك العينين بين الطلاب ولم ألمحهما، أكانتا وهماً عابراً؟... بالتأكيد لا، أنا واثقة... ربما كان شخصاً طارئاً على المكان فلا تشغلي نفسك به، دروسك أولى، لكن شاءت صدفة أخرى غير متوقعة أن ألتقيه ثانية عند الدكان القريب من المدرسة، لا أعرف ماذا حدث؟ كيف التقت عيوننا بهذا الانجذاب الخطير؟ غابة نخيل فسيحة ممتدة، بريق ساحر أسرني، تيار كهربائي تدفق في عروقي، أكانت ثانية، بضع ثوان أم دقيقة حلقنا معاً؟ لمسنا السحاب.

ليس بمقدور الكثير منا الوقوف بوجه صاعقة الحب وفيضان مشاعره الذي جرفنا معه غير مبالٍ بالعادات والأعراف وكل تلك النظم والسنن البشرية التي قيدتنا وشوهت صورة حبنا بالنزاعات العائلية وحمى الطبقية البغيضة، لكننا لم ولن نستسلم يا عدنان، لا أفهم لماذا لا

يرد على رسائلي؟ فاتصلت على رقمه وما من إجابة سوى أنه خارج التغطية أو مغلق حسبما يواصل ترديده المجيب الآلي.

ما يزال الطريق نحو الشارع الرئيسي غير ظاهر وسط هذه الأحراش الشائكة وأشجار النخيل مثلما بركات الوحل التي تعترض طريقها، لكنها تتقدم نحو الأمام على أمل أن تلمح أنوار السيارات... تمنيت أن أزف إليك بأسطول سيارات تتقدمها سيارة العريس المزينة بالورود والبالونات ناهيك عن فرقة دمامات ودفوف ومزامير تصدح مع هلاهل عالية تتسابق النسوة في أدائها، يا الله كم هو جميل أن تأتي لأخذي ببدلة سوداء وقميص يتنازع بياضه مع حمرة خديك، أن ترفع خماري الخفيف وتطبع قبلة ساحرة على جبيني يلتهب لها قلبي... اسرعي الآن عدنان ينتظرك... نعم نعم ها أنا أسرع لكن للأسف لن يكون ببدلته... لا عليك حتماً سيشتري واحدة وفستان لك بخمار طويل كما حلمت دوماً لكن تعجلي.

الظلمة تخيم على الحقل مثلما الوحل يغطيه ويصبح الأمر مرهقاً للغاية، وكأنني أظنها تدور حول نفسها متعثرة ضائعة، ما لها، لا أفهم حقاً! بت أرتاب منهم وأشفق عليهم في الوقت ذاته، مرسلاً شعاع نور خفيف في

محاولة صادقة لمساعدتها على إيجاد مخرج واللحاق بحلمها.

أصوات عواء ونباح متناوبة في بعدها وقربها، اختلط الأمر عليّ، يا الله هي تقترب، حسيس أقدام تتربص بي من خلف النخيل، هل بعثوا حراسهم؟! أكاد أشم رائحة جلودهم العطنة، عيونهم الوقحة المترصدة، أشعر باقترابهم، هم حولي، أنفاسهم اللاهثة، يقتربون، عواء، نباح، حفيف سعف النخيل، خشخشة الأعشاب، يقتربون، هم يقتربون يا إلهي، وجرت تلهث مسرعة هاربة، أولئك الأوغاد يلحقون بي، لن ينالوا مني مهما حاولوا: تراجعوا، تراجعوا يا أوغاد، دعوني وشأني، دعوني، لن أعود معكم، دعوني أرجوكم، أوغاد، دعوني، مشيحة بيديها تطردهم، وتكومت على الأرض في نوبة صرع، تهتز أطرافها المشدودة بعنف وترتعش، يثغو فمها باللعاب، أصوات وغمغمة تهدأ تدريجياً حتى تستفيق بعد حين متعبة مهدودة القوى تبحث عن مخرج غير مدركة لوضعها الحالي مندهشة مستنجدة بذاكرة فقدت تواصلها مع الحاضر وهلة.

تقاوم جسدها المرهق ولا شيء يستحثها على النهوض سوى هاجس اللقاء بعدنان الذي من المحتمل

جداً أن القلق قد بدأ يدب نحو قلبه... فهيا انهضي ولا تتأخري عليه أكثر، مستأنفة سيرها نحو نهاية الحقل وتباشير أضواء مصابيح السيارات تخطف بين الحين والآخر فينبثق في قلبها الأمل الذي بالكاد يعينها على دوامة الخروج من ذلك الحقل ووحله بساق مدماة علقت بالسلك المعدني ذي الندب الحادة الذي يحيط حدوده.

اتخذت مقعداً قصياً من الحافلة بعد أن لفعت معظم وجهها بوشاحها وبعثت برسالة نصية قصيرة إلى والدتها " أرجوكِ أمي لا تقلقي عليَ ولا تخبريهم عنا، سأسافر أنا وعدنان ونتزوج... مع السلامة" كما عاودت الاتصال به دون جدوى، قبل أن تحكم إغلاق نقالها قاطعة الطريق عليهم في الاتصال بها أو الوصول إليها شاردة مع أحلامها... بيت حجري صغير على طرف جبل تسوره غابة أشجار الجوز والتي كيفما التفتت أراها تلوح لي من النافذة المشرعة على طريق صخري يتفاوت في تدرجه، يضيق ويتسع، ينحني وينفرج بلا كلل، سنبقى هناك في عزلتنا مدى العمر بعيداً عن عيونهم المتجسسة وقلوبهم المتوجسة، وحدك أمي وأشجار النخيل من سأفتقدهم، فسامحوني أرجوكم إن لم ألتقيكم ثانية، سأتبع حلمي حتى النهاية، حتى النهاية سأكون معك يا حبيبي، أرجوك

لا تقلق، أنا قادمة في الطريق إليك، ومدت بصرها مستطلعة الطريق والمحلات المصطفة على جانبيه وقد أغلقت معظم أبوابها بعد أن أقبل الليل بعباءته مفرقاً الناس إلى بيوتهم، الطريق خال على الأغلب فلماذا يتهادى في سيره هذا الأحمق؟!... على رسلك الطريق متعرج ضيق يستدعي تركيز السائق وحذره فكوني صبورة... لكن سوف أتأخر عليه، وأخذت تراوح في جلستها مشدودة النظر إلى الخارج بحثاً عن إشارة مرورية تطمأنها بقرب الوصول.

تتمازج الخيالات متلاقحة بالذكريات فيضج عقلها وترتجف من وطأتها لا من ملابسها المبتلة الموحلة، شارفت المدينة بسطوع أنوارها وضجيجها، فنزل بعض الركاب في مناطق مختلفة حتى الگراج، عندها تأهبت نازلة كآخر راكب محملقة في الوجوه الغريبة المنشغلة في البحث عن مكان وجهتها، لا أراه! ترى أين هو؟! وقفت وهلة والهواء البارد يضاعف من ارتعاشها فتصطك ركبتاها وتخدر أطرافها، يا إلهي أين عدنان؟ لا أراه!... ربما تأخر هو الآخر في الطريق وسيقبل عليك بعد قليل، فلا تجزعي وتحلي بالصبر، وقت قصير وسنغادر هذا المكان إلى الأبد، وأخذت تتفحص المكان بوجوهه

الكدرة المترقبة كأنها تسبغ عليه نظراتها الأخيرة، ترى أين أنت يا حبيبي ما الذي أخرك؟ لا تقل لي النهر!

طال وقوفها بين الناس التي تجيء وتذهب، تزايد نبض قلبها مثلما تداعت معنوياتها مواصلة إقناع نفسها بقدومه الأكيد الخالص، هو حبيبي الذي لا ينكث بوعده... محتملاً سخرية وازدراء أهلي الذين لم يفوتوا فرصة واحدة لإهانته والتطاول عليه وهو في عقر دارنا، يا لهم من متكبرين!... تطالع ساعتها كل حين بحثاً وهاتفه ما يزال مغلقاً أو خارج منطقة التغطية، لم يكف المحاولة في طلب يدي والتوسط لأهلي بوجهاء المنطقة والمقربين لكن الرفض ذاته... لن أتزوجه حتى لو بقيت عانساً أبد الدهر، أرجوك أمي لا تكرري على مسامعي رغبة عمي في زواجي من ابنه، لن يحدث هذا مطلقاً، افهموا جميعكم لن يحدث هذا ما حييت، أخبريه في المرة القادمة أن يذهب هو وابنه إلى جهنم... أين أنت يا عدنان أرجوك تعال ولا تتأخر عني، وطفقت ثانية تفتش عنه بين المارة وقد سرق الليل بعضاً من ملامحهم.

يأخذ بها التعب فتجلس على دكة صغيرة مواجهة لبوابة الگراج الحديدية العريضة مسندة بظهرها إلى الحائط وجسمها يزداد ارتعاشاً وتوتراً، أين تراه يكون؟!

لماذا تأخر هكذا؟! أمعقول أنه لن يأتي... بالطبع غير معقول دعي عنك هذه الوساوس، سيلمع كالفجر بين الجموع، فقط اصبري ولا تجزعي، هو قادم لا محالة، قاااد...م، يغشى النعاس عينيها فيستند جانب ذقنها على كتفها وتشرع في حلمها الوردي وحيدة إلا من أنظار الناس وفضولهم الذي تزايد بقدوم مجموعة من الشباب متوشحين السواد، متلفعين لا تبان من سيماهم سوى عيون مهتاجة تقدح شرراً وجدت غايتها بعد مشقة، قبض أحدهم على ذراعها برفق ولين، فخر حلمها على الأرض وبدأت بالزعيق والمقاومة: دعوني وشأني، دعوني وشأني، لن أذهب معكم، كلا لن أذهب معكم، دعوني، تباعدهم عنها بعزم وقوة، وقد التف الناس حولهم، عدنان سيأتي بعد قليل، لماذا تأخرت يا عدنان؟! لماذا تأخرت عليّ يا حبيبي، مجهشة في بكاء مر استدر دموع بعض المارة وشفقتهم بعدما استوضحوا من الشباب أن المدعو عدنان قد وافاه الأجل منذ ثلاث سنوات.

أيديهما متشابكة متعانقة في حرارة وشوق، كتمثال من صلصال متماسك لكنه لدن وناعم ونظراتهما زائغة ضائعة حائرة بين متابعة الوقت المقطع بين عقارب نشطة متعجلة على غير عادتها، وبين تحري ملامح وخلجات وجهيهما المتقابلين على طاولة صغيرة قصية لمقهى مهجور في مثل هذه الساعة من النهار.

جلسا صامتين لكن ضجيج رأسيهما ملأ فراغ المكان، أرجوك قولي شيئاً، امنعيني من الذهاب، هاك خذي الجواز ومزقيه إن شئت، أي جنون ألم بي؟! كيف تمكنت مني هذه الفكرة؟ لماذا لم تمنعيني عنها؟ أرجوك... هاك الجواز ولننهِ هذا الأمر هنا، الرحيل عنك أشبه بالموت، كيف لم أدرك هذه الحقيقة إلا الآن، كيف لم أفهم أنك غاية أحلامي وطموحاتي، فهل تنتظرينني؟ يا الله بت أشعر من الآن بألم الفراق والغربة، ستراسلينني كل يوم كما اتفقنا، حتماً ستمضي الأيام، لكن كيف أمضيها من دونك؟ لا

أفهم لماذا لم تصدي رغبتي الغبية والأنانية في السفر وكل خرافات وأكاذيب تحقيق الذات خـارج مظلة الوطن، انتظريني، لن يطيـب لـي العـيش حتى نـكون معاً ثانية، وحتى ذلك الوقت سأبذل قصارى جهدي، با لله عليك انتظرينـي حبيبتـي لن أتأخر، لن أتأخر، نـاظراً إلـى سـاعة يـده التـي أعلنت أزوف الوقت.

وصبة

ليل هذا الكوكب حافل بالقصص، ولا أعرف كم من الوقت تبقى لي، ليتني كنت قريباً من هنا قبل هذا الوقت، أصبحت فضولياً للمرة الأولى، أحوالهم تصرف انتباهي وتشده إلى درجة التلصص عليهم بمثابرة وشغف، ولا أدري إن كان لي الحق بذلك! هذا الآخر شيخ يتوسط فراشه في غرفة مشرعة النوافذ تستثير فضولي وتحثني على الاقتراب.

مجعد البشرة نحيل، يتكأ بوجهه على وسادة شاحبة كلونه، يتلوى تارة ويرتعش تارة أخرى وينضح منه العرق فتبين ضلوعه النحيفة وهيكله العظمي الواهن المخبأ تحت دشداشة كالحة متغضنة، لا يرقد على جنب واحدة، يتأوه بصوت مسموع لكن ما من جواب يرد عنه وحشة الوحدة والمرض رغم وجودهم حوله، وككومة أسمال عتيقة ينطرح على فراشه يتماهى مع وجعه وحزنه في استسلام لقدره... لا تنسني سأنتظر عودتك، مخلفاً يدها

وحيدة على الطاولة، لا تتأخر علي، وشفاهها ترتجف حنيناً... آآه متى ينتهي هذا الألم؟ يمخر في ظهري كسيخ لاهب... لن يبرد قلبي حتى تعود فلا تحرقه بجمر الانتظار... حاملاً حقيبتي الخفيفة إلى مطارات الغربة وسنواتها الطوال... الأمور لا تمضي يا حبيبتي كما يجب، أوشكت نقودي على النفاد قبل أن أحصل على عمل مناسب، لا شيء يبدو كما خططت له، الغربة تسحقني بأيامها الرتيبة المملة الباردة، ولا أملك سوى الصبر ملاذاً ومرتجى، أعدك بأني سأجد عملاً مناسباً في وقت قريب.

أقوى المسكنات لا تكف عنه ضربات الألم المتلاحقة لاسيما حين يدب المساء بردائه الأسود الثقيل... يؤسفني حبيبتي أن أقص عليك أنبائي المزعجة، ما من شيء يدعوني إلى التفاؤل وأنا أدق عنق كرامتي كل يوم في عمل جديد لا يضاهي بعضاً من طموحاتي، ولا أدري إن كنت قد تسرعت بقرار السفر؟ والأدهى من ذلك وأكثر مرارة أن ليس في الأفق القريب انفراج، فما عساني فاعل يا حبيبتي وثورة الشك تقتلع جذور إرادتي! صابغة أيامي وروحي بلون الإحباط العكر، سمية حبيبتي أصدقيني القول، هل أنا حقاً أناني؟ ترتبك المعاني في

رأسي وتختلط المفاهيم تحت سياط غربة تجلدني كل حين ولا أمل يبزغ سوى عينيك الحانيتين، أذكر كم كانتا حزينتين في لقائنا الأخير، ولا أعرف هل أستحقهما؟! سمية لو تعلمين أن أشد ما يرعبني هو الخسارة أمام نفسي والعودة فاشلاً، نعم لا أخفي عليك كم تؤرقني هذه الفكرة ليلاً وتحاصر نهاراتي الضبابية في بحث دؤوب عن عمل يكفل لقمة العيش، يا للسخرية البشعة! البحث عن عمل يسد رمقي! هل تدركين حجم معاناتي يا حبيبتي؟... يا أولاد أعطوني حقنة أصبح الألم لا يطاق، متى أموت وأرتاح يا رب؟ أعطوني حقنة يا أولاد الكلب، يلعن اليوم الذي وكلتكم فيه أمري، كم من مرة طلبت إليهم إرجاع الحق إلى أصحابه! لكن جشعهم أعمى بصيرتهم وسد أذانهم عن سماعي... جشعهم وحدهم أم جشعك أنت؟ هم لا يختلفون عنك... لكني الآن أطلب منهم... لولا مرضك ما كنت قد فكرت بذلك من الأصل، وإلا لكنت أرجعته بنفسك فلا تدعي الشرف الآن... أريد أن أبرئ ذمتي قبل... لا أظنها ستبرأ، لا أظنها ستب.

لا أحد منهم يحاول تفهم طلبي، لا يريدون لي أن أرتاح في قبري، أولاد عاقون... سننجب أربعة أولاد

جميعهم يشبهونك يا سمية في رقة قلبك وحنانك، انتظريني ولا تيأسي أرجوك، وتذكري أننا سنكمل حياتنا معاً، فما جدوى البقاء دونك!... أولاد تملك منهم الجشع، لا أحد منهم ينوي الانصياع لوصيتي، أولاد الكلب يتهمونني بالخرف ونسج قصص من الخيال، وهل كمثل سمية امرأة في الواقع؟ لا ألومهم إن لم يصدقوا روايتي عنك، فقلما يصادف المرء أمثالك يا حبيبتي.

تشتد وتيرة ألمه ويدخل في نوبة هيستيرية تخرج عن حدود غرفته فيدلف إليه الممرض بحقنة مهدئة تستعطف النوم إلى جفنيه ساعات قليلة تتخللها أحلام هي أقرب للكوابيس فيستيقظ مفزوعاً يتصبب عرقاً، يتلفت حواليه ليتأكد أنه ما يزال عالقاً في غرفته وليس في حفرة من حفر النار المتربصة بأغلب لياليه... سمية حبيبتي أظن أن هذه رسالتي الأخيرة لك، أمسى الوضع أكثر من معقد ويائس، طردني صاحب العمل لسبب تافه لا يكاد يذكر، وسدت الأبواب في وجهي، الموت أفضل حالاً من الفشل، وداعاً حبيبتي... لا أفهم لماذا الآن طيفك يطاردني ويقض مضجعي بعد خمسين سنة! كيف لهم أن يصدقوا تلك الحقيقة؟... وإن صدقوها فلا تظنهم سيفون

بالـدين... ألا يقـدرون حجـم عـذابي؟ كيـف؟ كيـف؟... هههه فرخ الوز عوام يا شيخ عواااام.

لا يبـدو أن الـزمن يمضـي فـي هـذه الغرفـة المحتشـدة بالأجهزة الطبية وكل مستلزمات الراحة وخالية من الحب والــدفء، تفحمهــم نظراتــه المتعبــة المتقصــيةعيونهم المتحاشية الهاربة، يسخر في قلبه من ملامحهم المدعية، هواجسـهم وأطمـاعهم وحتى تـرقبهم الصـامت المكفـول بالمماطلـة والأعـذار، لكنـه يصـر علـى طلبـه وتنفيـذ بنـود وصيته ويماطلون في تلبيته.

مسـكين هـذا العجـوز القـابع فـي انتظـار مصـيره، كلانـا يشـبه الآخـر، شـيخان ضـعيفان لكـن متمـردان ناهيـك عـن الأنبوب المثبت إلى أنفه وحرارتي التي تذوي في ترقب سـاعة الصـفر، لأدنـو مـن النافـذة، حقـاً الشـبه بيننـا كبيـر، ذاويان مجهدان، نتحسر على ما فاتنا، آه لو نملك فرصة، فرصـة أخيـرة، يبـدو أن الجميـع يتماهـل متكاسـلاً، يخشـى التغيير وكسر طوقه حتى تلوح أمامنا النهاية المفجعة التي لا ينفع معها الرجاء بفرصة ثانية.

علـى فراشـه الـوثير يتقلـب كـل حـين هاربـاً جزعـاً مـن وجـع ينخـر عظامـه وذكريـات تـدق أوتادهـا فـي رأسـه بـلا كلـل... أمعقـول أن الطمـع يصـرع الحـب؟ سـؤال طالمـا

راودني في سنوات الغربة الرمادية القاسية، أمعقول أن أضحي بسمية حبيبتي؟ أمعقول أن ينسى ذلك الصبي الأسمر وقد تقطر العرق منه راشحاً على قميصه الأبيض في انتظار يومي عند زاوية الشارع تحت شمس الظهيرة كي يبادلها ابتسامتها البعيدة المحجوبة تحت ستر الخفر والقلق؟!... لكنك فعلت ذلك بدم بارد قبيح... لم أكن حينها بكامل عقلي، الظروف، ظروفي الصعبة قتلت ذاك الصبي العاشق... لا بل طمعك، ما يضيرك أن تعترف الآن بالحقيقة؟... كانت الظروف أقوى مني... يا لوقاحتك على فراش الموت وما تلبث أن تدفع عنك أخطاءك متعللاً بالظروف!... الحياة قسمة ونصيب ولم نكن من قسمة بعض... الله الله أهذا ما توصلت إليه؟ وصفق بيدين ناحلتين ضعيفتين مزرقتين لا مكان فيهما لحقنة مغذي جديدة، أنت من قسم واختار لا الله، فلا تكذب... دعني وشأني أرجوك، شارداً إلى تلك الأيام البعيدة التي قضاها متسمراً بلا ظل من شمس لاهبة لكنه محلقٌ بقوة الحب.

أشعر بأن الوقت يداهمني، أراهم يتقدمون نحوي، غلاظ، عمالقة كبار، وجوههم مدلهمة داكنة، هيا ابتعدوا، ابتعدوا لا تقربوا نحوي، لا تقربوا إياكم، آخذاً بالصراخ

والتلويح رافضاً بيديه وقدميه، اذهبوا من حيث أتيتم، لن أذهب معكم إلى ذلك النفق المعتم حتى أنجز فرضي الأخير، أرجوكم هيا اذهبوا، مشيراً بيديه مباعداً ومنادياً بأعلى صوته الذي تحشرجت كلماته في حنجرة تراخت حبالها ووهنت: تعالوا الآن، تعالوا واسمعوني، فحضر بعض من كان قريباً، أناشدكم يا أبنائي وللمرة الأخيرة أن تردوا الحق لأصحابه كي أرحل معهم بسلام، مشيراً إلى الفراغ الذي حوله، ما أثار ريبة الواقفين برجاحة عقل والدهم.

تهدأ نوبة العويل والهياج بصمت واستسلام إلى ذكريات بعيدة ما تبرح تحتفظ بها الذاكرة كأغلى الكنوز... بجديلتها الطويلة السوداء المشاغبة أسرت قلبي منذ ذلك الحين، مربكة أصابعي الصغيرة في زحفها البطيء نحوها أو الهرب منها وهي تتدلى في أحيان كثيرة دون قصد ناحية رحلتي التي لازمت رحلتها طوال مرحلة الدراسة الابتدائية، وكم من مرة نهتني المعلمة عن الإمساك واللهو بضفيرتها: زيد يدك عن ضفيرة سمية، لكن يدي أبداً لم تصغ وتسللت نحوها بشكل محفوف لا إرادي مرات ومرات، ناعمة حريرية لامعة تفوح منها رائحة شامبو منعش، نعم لم أتوانَ عن شم طرفها في

غفلة من الطلاب، لا أذكر أني تعلقت بضفيرة بعدها رغم النساء اللاتي اجتاحت غربتي، سمية حبيبتي لا أفهم كيف فرطت بتلك المشاعر الجارفة التي ربطتني بك حتى الآن! مثلما صعب عليّ التفسير لصديقي المقرب مزامنة ظهورك من شرفة غرفتك دون أي سابق إنذار أو موعد بيننا حالما نقترب من بيتك، لم يصدق توارد خواطرنا وكل ذلك التواصل الروحي بين الأحبة رغم تكرار شهادته على مواقف مشابهة، لم يصدق كيف استدعيك بروحي فتلبي النداء، مثلما أصابته الدهشة متهماً إياي بالشعوذة والسحر حينما انتظرناك عند موقف الباص، حلفت له بأغلظ الأيمان أنني ما كنت على علم بخروجك لكن إحساسي هو وحده من يجرني نحوك... وأين كان إحساسك حين تركتها تذوي في انتظارك؟... آآآخ وألف آآآخ، منخرطاً في بكاء صامت حارق.

استقام عود حياتي في الغربة على أكتاف سمية التي باعت مقتنياتها ومصوغاتها الذهبية مرسلة بثمنها إلي لإنشاء عملي الخاص الذي نجح وتطور مع الوقت الذي غابت فيه ملامحها عن ذاكرتي شيئاً فشيئاً، فشحت رسائلي المحملة بالأشواق والمذيلة بقلب ملتاع وحلت محلها سطور قليلة متباعدة خف لظى كلماتها وانحسر،

أي غباء كنت عليه؟! لا أدري كيف باعدت بي الأيام والعمل عن حبيبتي؟ وكيف أرحت ضميري الذي تيقنت من موته حين أقنعته بأن مشاعري تجاهها لا تعدو أكثر من مشاعر مراهق غير ناضجة، ولست مديناً لها بسوى مال تقاعست في رده وحثني الطمع على تناسيه لاسيما بعدما أخبرتني والدتي عن سفرها إلى خارج البلد والزواج.

لا أفهم لِمَ تضايقت حينها شاعراً بالحقد والضغينة، سمية لي أنا وحدي، ورغم هجري لها لكني من العمق أدرك أنها لي ومني، جزئي الأجمل الذي أحفظه عندها من التلوث والتشويه، لم أصدق ما قالته والدتي بسهولة، فعاودت سؤالها مدعياً اللامبالاة: صدگ سمية تزوجت خارج البلد؟ فكان جوابها ذاته: راحت البنيه لقسمتها ونصيبها، وإن شاء الله يوم الي نفرح بيك.

كنت قد نسيتها أو بالأحرى وأدتها في جوارير النسيان البعيدة متفاعلاً مع حياتي الجديدة الخالية من عقد الذنب والعادات والتقاليد، متحرراً من كل ما يربطني بالماضي... لولا نقود سمية لرجعت محملاً بالفشل أو مت في غربتك جوعاً وقهراً يا جاحد... ليست نقود سمية وحدها من كفلت لي النجاح، لماذا تنكر عليّ

جهودي الكبيرة ومهارتي في إنجاح العمل؟!... لا أنكر ذلك لكن أصل نجاحك كان نقودها فكفاك تبجحاً وأنت على فراش الموت، أتعلم بت واثقاً أن شعورك بالدونية أمامها هو من أبعدك عنها، وغطرستك منعتك من الاعتراف بفضلها في نجاحك... وأين ذهبت حنكتي ومهارتي؟ النقود وحدها لا تصنع النجاح... لو كنت واثقاً من ذلك لما توترت، اخلد إلى النوم قليلاً، أرح نفسك من مهاترات لا طائل لها، الزمن قد مضى بك بعيداً عنها، فلا أفهم لماذا الآن ترنو إلى تصحيح خطأك؟ ألا ترى أن الأوان قد فات؟!

تزداد وحشة الغرفة عليه، ولا يروح عنه سوى أنينه وحسرته وتسليمه بدنو الخلاص من هذه الآلام التي تتعاظم وطأتها ليلاً، عقلي لا يتوقف عن التفكير، ماكنة تدور كل الوقت فيه، الذكريات التي خلتها ماتت تنهض مجدداً، الأحلام، الأهداف التي حققتها ما تبرح تنزع عنها قيمتها فأدرك مدى فشلي وانغماسي في متاهات الحياة جرياً وراء الأطماع المندسة خلف قناع الطموح والمثابرة، الآن بات كل شيء فارغاً لا معنى له، لا معنى له، يا رب سامحني، أنا عبدك الخطاء المبتلى وأنت الرحمن الرحيم.

نوبات الألم تضربه بقوة دون رحمة ولا يجيد مواجهتها إلا بالهروب وطلب النجدة من ذكريات قديمة رقيقة شفافة ما تبرح عالقة في حنايا روحه رغم مقاومته الكبيرة لها وتحديها بالنسيان والسلوان الذي كفلته نساء عديدة مرت بمحطات حياته الحافلة... عجباً منك كيف تقيم عليها الحد على فعل أنت أتيته، فأنت من هجرها وأهمل الرد على رسائلها... كنت مجنوناً حينها، أما كان عليها أن تصبر؟! ألا أستحق الانتظار؟!... يبدو أنك للآن ما تزال مجنوناً! كيف لك أن تلومها؟... أوشكنا على النهاية وما تفتأ تعارضني، بل تستميت في جعلي المذنب، افهمني أرجوك، أنا اتكلت على حبها وسعة قلبها في الصفح عن أخطائي والغفران لي، هكذا أنا أفهم الحب، لكنها ماذا فعلت! ركبت موجة الزواج مع يد أول طارق، هي من خذلتني لا أنا، نعم سمية من خذلتني، فبعدها لم أطرق باباً للحب، ولم أسر في متاهات دروبه ووحل عذاباته، أصبحت حراً طليقاً من كل تلك القيود والأحمال، فعلاً تحررت من عذاب محبتها كما قرأتها مرة لديستوفسكي، مطلقاً دموعاً احتبسها في مقل فاضت بها.

ما لهذا الشيخ كم يكابر، لا يستسلم؟ أرقبه يتلوى ألماً في غرفة يتناوب على مجالسته أحدهم وآخر يشرف على راحته وأوقات دواءه النافدة المفعول على ما أظن، هو الآن ينادي عليهم من خلف شيء غريب الشكل مثبت إلى أنفه: يا أولاد أسألكم للمرة الأخيرة أن تبحثوا عن عنوان السيدة سمية خليل إبراهيم العادي، وتردوا إليها دينها مع كافة الأرباح، استحلفكم بالله أن تريحوا أباكم في قبره الذي أراه بعد خطوتين عني، مشيراً بيده المعرورقة الواهنة إلى خارج سريره، هم ينتظرونني ولا أستطيع أن أطيل عليهم أكثر. رمق بعضهم بعضاً في حسرة وتنهيدة خجلى كممت أفواههم إلا أصغرهم الذي استجمع شجاعته مندفعاً غير ملتفت لتحذيرات وإيماءات أخوته الممانعة: والدي العزيز، ناظراً إليه بعطف وشفقة وممسكاً برفق يده الواهنة الضعيفة، بعد البحث والسؤال عرفنا أن المدعوة سمية العادي قد فارقت الحياة منذ رحيلك عن العراق ببضع سنين.

مكان مخنوق، تحيطه الأسيجة العالية وبعض أشـجار الكـالبتوس العتيقـة الشـاهقة مغلقـة سـماءه بأغصـانها، مرسـلة ظلالهـا الشـبحية الكئيبة على الأقفاص الحديديـة المختلفـة في حجومها وأشكالها القابضـة بـداخلها على عـدد من الحيوانات المتجهمة المتوجسة من الزائـرين المبـالغين في مـزاحهم أو تعـاطفهم ولطفهـم وهم يرمون ببعض الطعام والفواكه نحوهـا مـن خلف أنوف مشمئزة من رائحة الفضـلات المنفـرة رغم اهتمام الحارس وحرصه الشديد على نظافة لا تكفـل ديمومتهـا تلـك الحيوانـات المتراخيـة الكسولة والتي لم تجرب أقدامها المشي إلا بضع خطوات تفرضها عليها مساحة القفص باستثناء الـبط والأوز الـذي يعـوم في بركـة اخضـر ماؤهـا وركد.

عالم الحيوانات لا يختلف كثيراً عن عالم البشر في نزاعاته لبسط النفـوذ والسـيطرة مـع فـارق أنها لا تضمر الشر أو الأذى مجبولة بغريـزة البقـاء

ولا شـيء سـواها مـن حثهـا للتـدافع والهلـع والفوضى حين شبت النار في ركن مـن الحديقـة آخذة بالتسارع مع خطوات الحـارس الكبيـر الـذي بـذل قصـارى جهـده في فـتح أقفـال الأقفـاص وتحريرهـا قبـل أن تلتهمهـا النـار التـي أكلـت نفسها أيضاً وما وجدت سيارة الإطفاء التي تـأخر قدومها شيئاً تطفئه.

فضة

لا أظن أن الندم حلٌ وعزاءٌ، ما يحزنني حقاً كيف أني لم أكتشف هذا العالم الجميل الغريب إلا في ليلتي الأخيرة هذه؟ كيف عشنا في فراغ مظلم نحو اللانهاية ندور إثر بعض، ليتنا أعتقنا أنفسنا يا صديقي، لكن فات الوقت وما علي الآن سوى الابتهاج بساعاتي المتبقية وأنا أراقب هذه الكائنات المحدودة القدرة، مجاميع منهم تخرج وأخرى قليلة تجتاز بوابة عالية لمكان واسع فسيح محاط بأشجار عتيقة تتسابق مع بعضها في الدنو من السماء، يفوتني اطلاق الأسماء على مسمياتها في أحيان كثيرة ولا يحضرني إلا القليل منها الذي طرق سمعي وأنا أراقبهم، لا أفقه بعضاً من أحاديثهم ولا تفسيراً لسلوكهم لكني أتفحصهم بفضول ممتع، وها أنا ألمح في الزاوية كائناً بأربعة أرجل، مدهش في جماله، يختلف عن ذلك الذي تركته في العراء، لكن خطباً ما يلم به، يراوح

الوقوف بين أقدامه متثاقلاً، لأنظر عن كثب ماذا يجري معه؟!

أكاد أخر على نفسي من التعب، لا أدري متى نعود؟! رائحة الليل وحلكته انتشرت وما يفتأ بعضهم يود الصعود على ظهري والتقاط صور تذكارية توثق فروسيته وظرف طلته، وهذا الأخير يفاوض ويساوم في السعر، هيا اصعد ودع هذه الليلة تنتهي على خير، وقف إلى جانبي، فاحت رائحة العرق حين مد يده نحو رأسي مداعباً خصلات شعري، ومض الضوء في عيني، تسلق ظهري بصعوبة، وخزني بطرف حذائه هذا الغبي، يمسك اللجام، حان الوقت لالتقاط صورة ثانية وثالثة ورابعة من زوايا مختلفة تظهر رشاقتي وجمال وثبتي بساقيّ الممشوقتين، ثانية طرف حذائه يحز ظهري، متى ينزل؟! ما أثقله! رائحته تملأ أنفي، رفاقه ساعدوه في الترجل من على ظهري، ما أسمجه! يتفحص صوره في الكاميرا مختاراً واحدة تكشف عن أسنانه الصفراء من وراء ضحكة واسعة لا تخلو من الخوف والدهشة، لكنها لم ترقَ إلى مستوى خياله الطموح طالباً ركوبي ثانية لالتقاط صورة أجمل لا تظهر كرشه ورخاوة عضلة عضده، وعظمة أنفه البارزة على شعر أشعث لم تحتويه قبعته كما يجب، أطلعه

مالكي على الصورة بِعد قيامه بتعديلها وإضفاء لمسة الفارس عليه، فقابلها بابتسامة راضية عن النتائج مما دفعه إلى إعطاء الأجرة بحماس ظاهر مبتعداً مع رفاقه على حلم أن يعلق صورته في الغد بعد تسلمها على صدر بيته متباهياً بفارس يظنه أنه هو.

الطمع يعمي بصيرته، والنعاس يشتد عليّ، أوشك معظم الزوار على الخروج من المتنزه، وهو ما يفتأ يغري المارين بالتقاط صورة معي بسعر مخفض، شعرت بلئمه من خلف تلك النظرة الصفراء المدهونة بالدهاء والخبث حين التقيته للمرة الأولى، فتقرح قلبي حين اقتادني إلى باحة بيته الخلفية الجرداء بعد إتمام صفقة بيعي، هل أبدو نكدة شكاءةً؟! ربما أنا كذلك ولن أتظاهر بالعكس، يكفيني كل يوم الوثب والرقص، الخيلاء الكاذب والإباء الزائف، لأحتجز آخر النهار في حضيرة بائسة وكأن السجن والأقفاص نصيبي مذ ولدت... لا تكوني جاحدةً للنعمة، أنت هنا أفضل حالاً فلا تتذمري.

لا أدري إن ولدت في قفص لكني أذكر أن خطواتي الأولى لم تتجاوز بضعة أمتار، ولم أدرك ما الخلل الذي ألم بي دافعا بمربي الخيول إلى بيعي لإحدى الحدائق بعيداً عن والدتي العربية الأصيلة وجمع من الخيول

المشابهة لها، يصادف أحياناً أن ألمح نفسي أمام المرآة، فأرقبها بعين فاحصة بحثاً عن ذلك العيب الذي فرقني عن والدتي، وأبخس قيمتي من فرس أصيل تجوب حلقات السباق تلاحقها الأنظار إعجاباً وفخراً إلى هذا المصير المدقع، آآه لو أعرف ما الخطأ الذي حصل عند ولادتي، كل شيء في على أكمل وجه، بيضاء مائلة إلى الفضي، شعر ناعم مسترسل، قوائم قوية رشيقة سريعة، حوافر صلبة، جسم مشدود منساب، خفة وذكاء، لا أدري لا أدري ما الفارق بيني وبينهم؟! حقاً لم أدرك ذلك الفارق الكبير حتى بعد أن طرق سمعي غمغمة ذلك المربي وأسفه: يا للخسارة ليست بفرس أصيل هذه المهرة، رغم جمالها الباهر.

في حديقة الحيوانات لفت شكلي أنظار الأطفال وذويهم، فازداد عدد الزوار بشكل خاص لمشاهدة المهرة البيضاء الجميلة مما أدخل على قلب صاحب الحديقة الفرح والثقة برجاحة عقله وحسن تدبيره بالإقدام على شرائي من مربي الخيول، فطالب الحارس بالاهتمام بي بشكل خاص وتفضيلي بأحسن أنواع العلف، مطلقاً اسم فضة عليّ، لكني حينها لم أكن متأقلمةً بعد مع أجواء الحديقة والقفص الضيق الذي قام المالك الحاذق

بتوسيعه وتغطية أرضه بالقش كنوع من توفير الراحة لي والترويح عن الحزن الذي ألم بي لفراق أمي، ومع إصرار الأطفال على مناداتي باسم فضة ومداعبتي شعرت بالثقة والتفاعل معهم خارجةً من دائرة عزلتي، متناسيةً الحقل الأخضر الرحب الذي قدمت منه ورائحة أمي التي تعبق بذاكرتي إلى الآن، وبات انتظار الأطفال من مقومات حياتي، لا أفهم كيف أشعر معهم بالدفء والتعويض عما فاتني من حب الأم ووداعتها، أيديهم الصغيرة الناعمة وهي تمر عليّ ملاطفةً، شفاههم وهي تطبع قبلات حانية ودودة على صفحة وجهي، رائحتهم الطفولية الزاكية، أصبح بعضهم من أصدقائي الذين لا ينفكون عن زيارتي كل فترة وتقديم المكسرات والسكاكر لي.

استبد بي التعب وأخذ مني مأخذاً، مرت عشر ساعات تقريباً على وقوفي في وضع تأهب واستعداد لرغبة يحركها مالكي الجديد في نفوس المارة ولا سيما الصغار منهم الذين ينصاعون لرغبة ذويهم فيمضون عني ثقالاً يجرجرون خطواتهم ورقابهم متلفتة نحوي حسرة، وتبرق في عيونهم دمعة. بخبرته ودهائه أدرك أن أجمل الصور وأكثرها حيوية وصدقاً تلك التي يلتقطها للأطفال، سعادتهم تبدو فيها صافية من القلب وإن وتّرت بعض

الخشية ملامحهم، والتبس صوت الضحك بالخوف والبكاء لديهم، يا للأطفال عالم ملائكي غض تنتهي حدود براءته حالما تحط الأقدام خارجه.

بين صحو مرهق وإغفاءة متقطعة حط على ظهري طفل لم يتجاوز السادسة يجهش بالبكاء ويلملم دموعه حالما قبضت يدا والده على خصره اللدن بشدة، فاسترخيت بظهري كنوع من بث الطمأنية والألفة مع هذا الطفل المرتعد خوفاً المستنجد بأمه وخشيتها عليه من السقوط: أرجوك أنزل الولد، مع عناد أبيه وغطرسته في فرض رأيه بضرورة تقوية عود ابنه الهش وطرد شبح الخوف عنه: لا تخف، كن رجلاً، وناوله اللجام بصوت آمر محتد، أشعر بارتجافه يسري على ظهري، ويديه الضعيفتين تتشبثان بشعر رقبتي، ولعاب أبيه المتطاير يحط على صفحة وجهي ناقماً على ولده خشيته وتمنعه عن إمساك اللجام: كن رجلاً هيا... هيا كن رجلاً، فيزداد ارتعاشه ونشيجه شبه المكبوت على وقع توسلات أمه التي نهرها والده موبخاً، ما قمت بوثبتي المعتادة، واكتفى الوالد بصورة لابنه الفارس ممتطياً ظهري ماسكاً عن عينيه الدموع، ولم يستطع إمساك نفسه فشعرت برطوبة دافئة تنزلق على ظهري وتبلل جانباً من قطعة القماش

المزركشة الموضوعة عليه، ابتعدت العائلة وعلى سيماء الوالد بعضٌ من الرضا الممزوج بالخيبة، وكثيرٌ من السباب والشتائم تتطاير من فم مالكي وهو يصب الماء على ظهري ماسحاً بقعة البول.

ليتني أستطيع مسح ذاكرتي بدلو ماء كما فعل... هرع بعضنا نحو الشارع الرئيسي وآخر جرى على غير هدى فراراً من النار، تقصينا وجوه بعضنا بعضاً مدركين أن النار قد أخذت حصتها ملتهمة حارسنا المسن الطيب حينما كان مشغولاً بتخليصنا وفك الأقفاص، بان في عيوننا الحزن على مصيره وتلبسنا الخوف والاضطراب، هي المرة الأولى من زمن بعيد بلا قيود ولا أقفاص، أحرار أخيراً، معظمنا ولد في قفص ولم تطأ أقدامه الإسفلت، أين يا ترى نذهب والدخان في تصاعد منفر يشكل غيوماً سوداء كثيفة؟ بعضنا أعاق حركة سير السيارات بوقوفه مذهولاً وسط الشارع حتى كاد بعض السائقين يدهسه، أي مصيبة هذه؟! هل هذا العالم القابع خلف أسوار الحديقة؟ تناوبنا السؤال بيننا بعيون مندهشة متوجسة، أين جداول الماء التي طوقت أسماعنا أحياناً كثيرة، تجري في مرابع خضراء نضرة زاهية؟ السماء الزرقاء الواسعة البهية بأفقها البعيد؟ نسائم الهواء العذبة الطرية؟ لا شيء، لا

شيء مما راود مخيلتنا وكل أحلام لياليا الطوال موجود خارج أسوار حديقتنا، يا للخيبة العظيمة التي ركبتنا! يا للخيبة!!

نال منا الهلع بتقاطر الناس وجمهرتها أمام الحديقة تطالع مشهد النار أو تحاول الإمساك بأحدنا، فاختلط الحابل بالنابل وسادت الفوضى المكان وتشتتنا، الأوز يصرخ وخلفه الصبيان يجرون، الغزالة وصغيرها محشورتان في ركن وقد تشاجر شخصان عليهما، الأسد ولبوته يقطعان طريق السيارات باضطراب رغم زئيره الذي بعث في النفوس الهلع، كذلك الدببة مهتاجة مع القرود التي تشبث بعضها بأغصان الشجرة المورقة على قارعة الطريق وآخرى على الأسيجة هرباً من نظرات الناس الملاحقة الساخرة، الأفعى الكبيرة الضخمة لا أعرف كيف انسلت هاربة نحو قطعة الأرض المجاورة وما عاد لها أثر، أووه لكم عانيت من سماع فحيحها ولازمني القلق رغم أنها كانت في قفصها الزجاجي المحكم الغلق، طولها يتجاوز خمسة أمتار بمحيط ثخين وجسد ناعم الملمس –حسبما أظن- لامع أصفر مائل للاخضرار بنقوش سوداء وبنية متفرقة عليه، أما مالك الحزين فقد انتصب على أحد الأعمدة محافظاً على حزنه

الوقور المعتاد بينما حلقت من حولنا باقي الطيور في سماء بلا سقف شبكي، فرد الصقر هيبته على الأفق، ونعقت الغربان بحثاً عن مأوى، ولم أعرف مصير مجموعة الطواويس فقد لمحتها تجري بين المارة وفيما بعد لم أشهد منها سوى بضع ريشات داستها الأقدام، لم أفهم حينها جيداً إلى أين نحن ماضون؟ وهل الحديقة كانت سجناً أم ملاذاً غاب عن وعينا الامتنان له؟! أعتقد أن أغلبنا شعر بوطأة وقبح الحقيقة حتى تلك النسور التي رمت بأجنحتها عرض السماء مبتعدة.

كنت واقفةً حينها بظل الجدار منكفئةً وقربي صغيري الذي حملت به في لحظة طيش أو غباء أو حتى ضعف، لا أود استعادة تلك الذكرى، وأبوه الحمار واقف ينهق فيما يحاول أحدهم سحبه بحبل استطاع وضعه في رقبته بعد محاولات، خشيت أن يأتي علينا الدور، فتضاءلت متقهقرة مرعوبة من المستقبل القادم الذي بانت ملامحه حين قدم رجل وابنه نحونا وابتسامة ماكرة تتفطر على وجهين مغبرين قاسيي التقاطيع، قاومت بادئ الأمر وكدت أن أقتله برفسة شديدة لكني أذعنت حينما لجما صغيري واقتاداه أمامي، دعوت أن أكون مخطئةً وأن لا يصدق حدسي هذه المرة، وللأسف صدق.

الحياة معهم كانت مزرية شاقة إلى حد بالغ، اضطهدوا ولدي الصغير وحملوه عربة جر لقناني الغاز أكبر من طاقته وقدرته، فانسلخ ظهره من سياطهم وتقرحت جروحه ومعها قلبي، لم أتصور أن البشر يغالون في قسوتهم وعنفهم بهذا الشكل! كم أشفق عليهم؟ يحملون في صدورهم حجراً لا قلوباً، روعوا حياتي وعذبوا طفلي حد الموت، المسكين عانى كثيراً حتى وقع من طوله منكسراً حوضه، ومات تحت وطأة الألم مخلفاً في قلبي مرارة عظيمة وكراهية تفوق الوصف لبني البشر، أنينه الليلي مزق فؤادي دون أن أملك حيلة لرفع بعض من الأذى عنه ولو بلمسة فقد ربطاه على مسافة مني تحول أي تلامس أو عزاء، صعدت روحه وعيناه تطلبان نجدة أم عاجزة مكبلة، صغيري الحبيب سامحني أرجوك ولتكن روحك في مكان سام عال.

ما تزال ذكرى ذلك المساء تعبث بروحي ممزقة حينما طرحاه أرضاً حيث مكانه لا حراك فيه دون إسعاف أو طبيب، ولولا صوت أنينه وارتفاع صدره وانخفاضه البطيء لحسبته ميتاً، وددت الموت قبله لأتلقفه بأحضاني، أشمه وأقبله، وقبيل الفجر بعد يومين عصيبين أدركت أنه قد رحل بهدوء عقيم صارم.

لـم يـدفناه بـل ألقيـاه قـرب مكـب النفايـات، أي حـزن عظيم أن ألمحه في طريق الذهاب والإياب منهوشاً مبقور البطن!؟ وليمة لا يغادرها الذباب مدة شهر كامل؟! وأي قسوة فظيعة؟!!... صراخ وعويل يصدر عن بيت مالكي، يتجمـع النـاس وأنـا مربوطـة فـي الجانـب لا أملـك إلا مشاهدة وسماع نصف الأحداث لكني فهمت أن طفلهم الصـغير قـد دهسـته سـيارة أودت بسـنوات حياتـه السـبع، ابتسـمت وهلة، شـعور طـارئ مؤقـت بالسـرور أعقبـه نـدم وتأنيـب... لا تكـوني مـثلهم، بشـعة بقـدرهم، ولا تنسـي يديـه الصـغيرتين اللتـين طالمـا مررهمـا عليـك مـداعباً ومواسـياً وقبلـه الرقيقـة الناعمـة... يـا الله لمـاذا هـو؟ كـان الـودود بينهم، فـازداد شـعوري بـالمرارة والوجـع... خـيط من الدم سال من فمه ولـولا بقـع الـدم التي لوثـت ملابسـه لخلته نائماً على ذراعي مالكي الذي دخل به إلى البيت نحو أمه النائحة.

"يمـه يـا حمـودي يـا يمـه" صـوت نعيهـا ونشـيجها دام شـهوراً، فشـاركتها الـدموع والفقـد فـي إصـغاء واستسـلام حـزين حتـى نحلـت كلتانـا وقوضـنا المـرض... أنـت السبب، أنـت السبب، الله عاقبك آخـذاً بحـق ذلـك البغـل الصغير الذي عذبته، لكن لماذا ليس أنت؟! ما ذنب طفلي

المسكين؟! ليتك كنت أنت، ليتك كنت أنت، صوت نشيجها وتوبيخها له قشعر بدني وهيج جراح القلب، من أجل روح طفلنا أطلق سراحها، لا تقتلها هي الأخرى... فباعني ممتثلاً لرغبة زوجته المكلومة إلى مالكي الجديد بثمن رمزي بعد أن أقسم لهم بأنني لن أعود إلى جر العربات الثقيلة من جديد، واعداً بوضعي في وظيفة سهلة لا تكلفني سوى الوثب لالتقاط صورة مبهجة مع الآخرين.

أولى عناية خاصة بي وأطعمني بشكل جيد وفاته أن يطلق اسماً عليّ هو الآخر، مثلما قام بتنظيفي وغسلي بالشامبو ممشطاً شعري ومزيناً إياي بقماش مزركش ذهبي اللون لامع، ولجام ناعم ملون جذاب، فتهافت الأطفال ثانية عليّ في المتنره، وشرعت حياة المالك الجديد بالتغيير ومزاجه الكئيب بالتحسن والانفراج مع بشائر الرزق التي مكنته من بلوغ أغلى أمانيه بالزواج أخيراً ممن يحب، الفتاة التي طفحت بها أحلامه وشرود يقظته فعاشا شهوراً من العسل لا يعكر صفوها سوى بعض الأماني التي بدت مشروعة في البداية ليعقبها مطالب وطموحات اخترقت سقف بيته العگادة وما علينا نحن الأثنين إلا تحصيلها، فأجهدنا في العمل بساعات

إضافية بلا عطل أو فترات راحة ليواكب رغبات عروسه التي نزعت عنها ريش الحمام.

أخيراً قرر مالكي العودة إلى البيت بعد أن فرغ المتنزه وفرغ صبري على احتمال التعب، فسرت مجهدة خلفه، بعد أن أطعمني حفنة من الشعير الذي عافته نفسي إثر مشاق هذا اليوم الطويل، وقد عاد إلى سيرته الأولى ممتقع الأسارير متجهماً عابساً غابت عن صوته نبرة الأمل وهو يحثني للإسراع، تقعر كتفاه للأمام منقبضين مثلما ثقل وقع خطواته مغمغماً مع نفسه خائب الظن بالحب والمحبين.

أضواء المصابيح تتلقفهم واحداً تلو الآخر على طريق فارغ إلا منهما يجران أقدامهما منهكين تعبين، هو لا شيء يشغل تفكيره سوى جمع المال وإحصاء الربح لما تبقى من شهور السنة التي باتت أيامها عملاً طويلاً وتفكيراً مرهقاً بالمستقبل، وأما أنا فقد خاب ظني تماماً ببني البشر وسطوة غرائزهم مستذكرة كل أولئك الذين مروا في حياتي أو ركبوا على ظهري تحت مسميات وذرائع كثيرة أولها الفخر والتباهي أمام عدسة الكاميرا التي ستوثق تلك اللحظة الزائفة المتمردة على الذات الهشة الضعيفة، حتى الأطفال لم يسلموا من هذه العلل

النفسية في تلبية لرضا الآباء وإشباع غرورهم، فكم من مرة يصعد أحدهم على ظهري ممسوخ الإرادة والرغبة، خائفاً مرتجفاً لا يلتمس سوى نظرة إعجاب من أهله، بت لا أفهمهم ولا أدرك غاياتهم في تصعيب حياتهم وتسويرها بالأشراك والقناعات المتأزمة البعيدة عن منطق الفطرة، فحمداً لله أني لست واحدةً منهم، وأخذت تجر أقدامها خلف مالكها المثقل بأطماع الغد.

ما بالهم؟! وكم أعجب لقنوطهم! وكأن الجميع في انتظار ليلته الأخيرة مثلي تماماً، فكل من مررت به ينوء بحمله ساخطاً على قدرية مسيرته، أيشعرون هم أيضاً بالغربة في ديارهم، أهي فعلاً ديارنا الحقيقية؟! ولماذا هذا الحنين لشيء بعيد مجهول؟ لأمل يدغدغ أرواحنا ولا تصله عقولنا؟ ها هما أخيراً يتوقفان.

يدلف الرجل إلى بيته الصامت بعد ربط الفرس في باحته ليندس بهدوء إلى جانب سريره البارد دون أن يضع في فمه لقمة مما تركته له عروسه التي يتخيلها كل ليلة في انتظاره مشتاقة ولهة فيذوي خياله على وقع شخيرها، ويخلد إلى نوم عميق مثخن بأحلام الثراء تقطعه صرخاتها المولولة: واااااااه، واااااه انهض يا رجل

انهض، كم من مرة سألتك أن تزاوجها لكنك لا تصغي، ضاعت أحلامنا، ضاعت..... لقد نفقت الفرس.

يـا اللـه أخيـراً سـيتحقق حلمـي الـذي طالمـا انتظرتـه، لقـد تجـاوزت كـل العقبـات متخطيـة الأصوات الرافضة، فلا بد للحـب أن ينتصـر، لسـت ألوم مـن لـم يـذق طعـم الحـب وتلسـعه حـرارة أشواقه...

في الغد القريب سيجمعنا سقف واحـد تحـت مرأى الجميـع دون خشـية مـن نظـرات متسـللة تنكد علينا ألق اللقاء، سأمسك يدك وأشـهدهم أنك لي وإلى الأبد.

المسمار الأخير

أمن سخرية القدر أن أقضي ساعاتي الأخيرة متلصصاً على هذا وذاك؟! والأدهى أنهم يعيشون بؤساً وخيبة وكأنهم في مؤازرة لي، أغبياء لا يعرفون معنى الحياة، معنى أن الوقت أمامك، وأن العيش هي هبة كبيرة تستلزم الثناء والتقدير قبل فوات الأوان، وهذه نافذة أخرى تطلق ضوءها نحو السماء، مدهش أن تدرك بعد عمر طويل سحيق أنك فضولي، تستطلع من النوافذ حياة الآخرين بشغف ملفت.

ينام مستلقياً على الطرف الأيمن من السرير بينما شخيره يغزو الغرفة، فتجلس على الناحية الأخرى منه غاصة في أفكارها، ترقبه بعينين مطفأتين، لا أستطيع النوم من شخيرك هلا انقلبت على جانبك الآخر، وتزيحه بإحدى يديها، فيخف الضجيج، ولا يخف وقعه في رأسها، تنهض الأصوات جميعها مرة واحدة، ولا قدرة

لها على إخراسهم غير أن تفرك رأسها وتمسد جبينها بأطراف أصابع مدببة رقيقة ناعمة...

- أرجوك يا ابنتي لا تهدري شبابك وجمالك بهذه الطريقة، أمامك فرص كثيرة أفضل منـ...

- أمي أستحلفك لا تكملي، تعلمين جيداً أني أحبه، ولا متسع لي في العيش من دونه...

- بنيتي لا تنخدعي بهذا الوهج، هو كالبرق تماماً سرعان ما يختفي لتحل الأمطار والرعود بعده...

- أمي لا تقيسي الحب من واقع تجربتك...

- يا ابنتي صدقيني كلها سواء، تلمع في البدايات فلا تنجري خلفه... وأخذت تتفحص ثانية صدره الصاعد والهابط تحت دشداشته التي تعمد إلى تعطيرها في استقباله، يده الثقيلة الملقاة على جبينه ونصف وجهه، شعره المجعد وحلم تمرير أصابعها عليه ذات مرة، تسللت ابتسامة متهكمة صغيرة طرف فمها، فمطت شفتيها، عاضة طرف إحداهما بنابها، باسطة يدها نحوه لتسحبها ثانية قبل أن تصله مكتفية بالنظر إليه منغمسة في ذكريات الماضي القريب وقد أضحى بعيداً دون أن تدرك السبب، أو بالأحرى تتهرب منه.

مضى على زواجنا أحد عشر شهراً وسبعة عشر يوماً و ثماني عشرة ساعة، لا أظنه سيتذكر عيد زواجنا... اتركي عنك هذه الظنون، ما بالك؟!... هو حدس لا غير... ولماذا بات سيئاً؟ لا تورطي نفسك بهذه الأفكار... سيمر اليوم دون أن يذكره هكذا أشعر... أمممممم نبرتك لا تروق لي... وماذا أن صادف مع يومها؟... أصبحت متطيرة مملة... أيعتذر منها ويقضيه معي أم يغـ... لا تكملي، أنت تبحثين عن المشاكل لا غير... لكنه سؤال ما يبرح يجتاحني كل حين، يخرب عليّ سكوني وبقايا أمل أتشبث به وسط دوامة الشكوك والهواجس... ما من جواب لدي يطمئنك ويبعث الرضا في نفسك، وليس أمامك سوى الانتظار... وإن حدث ما نخشاه، ماذا أصنع؟... ارقدي هيا فقد تأخر الوقت.

طبطبت بهدوء على وسادتها مسوية إياها بالعلو المناسب الذي ربما يقطع الطريق على ألم رقبتها وكتفها، حاولت النوم، تقلبت على جنبيها على هدير شخيره المتناوب...

- بنيتي، لا أظنه بالرجل المناسب لك، لا يشبه عالمك...

- وليكن ما دام الحب يوحدنا.

- كيف أقنعك أن الحب ليس الأهم، وأنت الغارقة فيه حد أذنيك، لكن إعطي نفسك فرصة ثانية للتفكير.

- لقد فكرت ملياً، صدقيني يا أمي هو حب حياتي والرجل الذي كنت أبحث، لوت الأم فمها قابضة على تعابير وجهها.

- فكري يا ابنتي.

لماذا لم أفكر كما طلبت أمي؟... كنت مسحورة... ولماذا لم أبق كذلك؟ فالسحر أهون بكثير من خيبة الحقيقة، وثقل وطأتها.

رمت عنها الغطاء ناهضة من وخز أفكارها وإحساسها بالحر والضيق، مسحت قطرات العرق الصغيرة اللامعة على صدغيها وعنقها، لوحت بيديها في الفراغ طلباً في نسمات باردة رغم أن صوت المكيف ما يبرح يزايد على شخير زوجها، عادت واستلقت على الفراش ثانية بهدوء إلا من ضجيج رأسها، بدأت بالعد العكسي مئة، تسعة وتسعون، ثمانية وتسعون، سبعة وتسعون، ستة وتسعون... هل يكون يوماً مميزاً بالنسبة له؟!... هذا إن تذكره يا حلوة، خمسة وتسعون، أربعة وتسعون، ثلاثة وتسعون... ولماذا لا يتذكره؟... آه كم أمقت تظاهرك بالغباء والسذاجة... أنا حبيبته الحقيقية وما من سواي

تحتل قلبه... هههههه، اهتز جسمها كابحاً صوت ضحكتها، هل أنت واثقة من كلامك؟... فلماذا تزوجني إذن؟ تسعون، تسعة وثمانون، ثمانية وثمانون، لا أنكر أنه قد تغير، لكنه بالمطلق ما يزال يحبني... نعم يحبك لكن هناك... لا تكملي، لست معنية بأمرها، هو يحبني أنا لا هي... وماذا تسمي إصرارك عليه بالاغتسال في إدانة صريحة لرائحة عطرها التي تملأ أنفك حالما يقبل عليك؟... أظنها تتعمد ذلك كي تثير غيرتي وتستفزني... ودمغة أحمر شفاهها على ملابسه، تمزق قلبك وأنت تتخيلينه بين أحضانها، الكدمات الزرق، قبله الشهية التي يبعثرها بينكما، شعرتها الذهبية المتسللة إلى كتفه أو المزروعة بعناية، ذوقها المفروض عليه في تفاصيل حياته وانتقاء ثيابه مثلما حروف اسمها الساقطة سهواً بين جمله ومفرداته، أولاده الذين تملأ صورهم حافظة هاتفه، سبعون، واحد وسبعون، اثنان وسبعون، أقصد تسعة وستون، ثمان وستون، سبعة وستون، منقلبة على الجهة الأخرى في محاولة للفرار من شبح هذه الأفكار التي ما تلبث تطاردها كل حين مثقلة وجدانها وروحها بالذنب واليأس.

بعينيه اللوزيتين حاصرني وبنبرة صوته الدافئة أمسك بتلابيب قلبي، هو غايتي وقبلتي وجدته أخيراً يا أمي، هو من كنت أبحث عنه وأطارده في أحلامي، لم أصدق أن ألتقيه صدفة أمام شباك الدفع في البنك يفصلنا زجاج، وسامته وجاذبيته تسحق الأنفاس، ارتجف قلبي ويداي وأنا أصرف له الشيك، رعدت في داخلي الرعود وأمطرت حنيناً وشوقاً، تبعته نظراتي الخجلى حتى آخر الممر، طوله الباسق، منكباه العريضتان، وأخيراً ألتقي بفارس أحلامي الذي طفحت به قصص عبير التي شغفت بقراءتها فترة مراهقتي، وحين اختفى أخذ قلبي يئن منقبضاً من فكرة عدم لقائه ثانية، آآه كان كالملاك لم أشهد يوماً رجلاً مثله، يا الله من أين جاء؟ لا بد أنه هارب من إحدى المسلسلات التركية، هكذا غمزت لزميلتي المجاورة التي استجابت لتعليقي مبتسمة مؤيدة.

حمداً لله لم أصبُ لعرض زميلي الذي يترصد خطواتي كحارس شخصي، ويحد منها بنظراته واهتمامه المتكلف، ولا على عرض ابن الجيران، كدت أقنع بنصائح والدتي في الزواج منه، لكن بعد هذا اليوم لن أقبل إلا بأمثال ذلك الرجل وإن فاتني القطار، عدت إلى

البيت وعقلي مشغول به، وبتلك اللحظات القصيرة التي فخمها وأضحت فلماً...

- أمي أخبري جارتنا برفضي القاطع لولدها.

- لماذا يا ابنتي، بالأمس كنت على وشك القبول.

- هذا بالأمس، لكن اليوم لا وألف لا.

- ماذا يجري معك هلا أخبرتني؟ ورمقتها بعينين حازمتين مستطلعتين.

- لم يحصل شيء، لكني فكرت ملياً بشأنه ولا أجده مناسباً.

هو الآن يعمل مهندساً في إحدى الشركات الأجنبية، وزوجته ترتدي أغلى الماركات وتقيم في أرقى الأحياء... لا تعودي بنا إلى هذه السيرة... لا أظنك نسيتها وحفل زفافها ما يزال حديث أهل المحلة... حبيبتي أنا أكتفي بك ولا أرغب بهذه الشكليات، فدعينا نسافر أسبوعي عسل... والفستان الأبيض لم ترتديه إلا لالتقاط الصورة، رافعة رأسها نحو صورتهما المسمرة على الحائط مستدلة بضوء الغرفة الخافت على ابتسامة حُنطت من كيد الحياة وملابساتها... يا لتلك الابتسامة الجميلة الباذخة والعينين اللامعتين كحجر كريم، وجهه

يلامس وجهي، أنفاسه تبهرني ويده المحتضنة كتفي تأسرني، أين أنا الآن من تلك اللحظات؟

رأسي يتضخم بأسئلة تتفرع وتكبر دون جواب يشذبها، يقص عنها الوساوس والشكوك، مشاعر الخيبة والخذلان، الندم و...

- لا تتسرعي يا ابنتي، إنها حلاوة البدايات.

- لا يا أمي هو من أبحث عنه، هو هديتي التي انتظرتها.

مع زفرة عميقة ونظرة واثقة قالت: لن يكون لك وحدك، فضعي ذلك في الحسبان.

- لكن قلبه ملكي وحدي، فلا تقلقي أرجوك.

كم كنت مجنونة! يا الله ماذا دهاني كي أصدق؟!... ربما كانت كلماته صادقة ومثلها مشاعره، لكن المشاعر تتغير، تتبدل... بل تخبو وتنطفئ برياح الواقع الثقيلة، أذهلني برقته وحنانه، مكالماته المشحونة بدفق هائل من الأشواق واللهفة، معه شعرت أني أملك العالم، بل لا أريد من العالم شيئاً سواه، انحدر سيل دموعها الصامت على وسادة ما تلبث تسويها كأنها السبب في أرقها الذي بات مزمناً.

شدني إليه بمفاجئات تذهب العقل والروح، حسدت نفسي عليه وكنت قد آمنت أن ذلك النوع من الرجال قد اختفى وأن عصر الرومانسية بات قيد الأفلام العربية القديمة، معه وعيناه تحتضنني تنازلت عن الجنة، آآه يا لروعة تلك الأيام!...

- أمي هو ملاكي الحارس، فلا تحاولي معي.

- أتمنى ذلك يا ابنتي، بعينين يسكنهما التوجس والقلق، أتمنى ذلك.

- أرجوك أمي كوني واثقة من خيار ابنتك، وتمني لي السعادة...

لم أكن أظن بوجود هذا الحد المطلق من السعادة والحب حتى أدركتهما معه، أصبحت خفيفة بوزن الريشة، أحلق في عالم وردي عجائبي، عدت طفلة من جديد، عفوية لا تعرف معنى التحفظ ولا تلك القواعد والإشكاليات الاجتماعية التي ينصبها البالغون، ليس بالأمر السهل أن تتجرد من كل تلك الإرهاصات نازعاً عنك لباس الرشد الذي توارى خلفه طفلك الداخلي محتجباً غير مشبع.

يخفق قلبي، يتسارع نبضه حين ألمح اسمه متصلاً، أرفرف كفراشة على ذبذبات ضحكته العذبة، يتوقف بي

الزمن، أخرج عن عقالي حين يناديني باسمي الذي صار أجمل وأغلى، رائحته الفواحة تأسرني، مشاعر غريبة لم أعهدها قبله، ولن أسبغها إلا عليه، وكأنني خلقت له، من طينه وضلعه، ملتفتة نحوه تسأل يائسة: أهو أنت ذاته من عشقت؟! أهو أنت ذاك الذي تملك وجداني واحتلني بالكامل؟! مكفكفة دمعة مشاكسة أوحت لها بالجواب الذي تتهرب منه منذ مدة.

نهضت من فراشها ثانية على مهل متجهة نحو النافذة مسترقة النظر إلى الحي الغافي على غمغمة وهدير أصوات المكيفات، وبعثت نظرة مطولة شاردة إلى السماء الفسيحة بنجومها وقمرها المشع، نفثت حسرة كبيرة عن صدرها، همهمت ساخرة من نفسها ومن أحلامها العريضة التي قوضها الواقع وكل تجليات الظروف... أرجوكِ كوني واقعية يا حبيبتي، ظرفي لا يسمح بمسايرة كل هذه الرغبات والأحلام، فصبراً على حبيبك... الصبر، الصبر تعويذة ما أبرح أرددها كل يوم حتى خلتها فاقدة للصلاحية معه... أنت البيت الثاني الاحتياطي... لا لست بالاحتياطية ولا البديل، أنا حب حياته... هههه آآه لا أدري لماذا لا تنفكين عن خداع نفسك؟ ما مشكلتك؟ حب حياته التي يتركها أياماً متذرعاً بمشاكل

الأسرة والأولاد، ملتمساً رجاحة عقلك وتفهمك أمام تبريراته ومتاهة شروحاته، أعرف أن لا إجابة لديك، ولا تفسير لملامح وجهه المتململة ولغة جسده المرهقة حين يقدم إليك، اختفى سنا عينيه ومثله ابتسامته العريضة المتأهبة لملاقاتك، مشاعره التي خفتت شرارتها، حديثكما المقتضب، تقلصت المواضيع منحصرة بالعمل وتفاصيل الحياة اليومية هذا إن لم يرش عليها ملح حكايا بيته الأول، بالمجمل يا عزيزتي أنت تفتقدين ذلك الرجل الرومانسي الشغوف وأمسياته... هو ما يزال كذلك لكن العمل يأخذ من وجدانه ووقته الكثير... ممتاز، فلِمَ الشكوى إذن؟!... لا أدري، لا أدري، أشعر أني أقف وسط رمال متحركة تجرني، ربما حقاً أني أصبحت امرأة غيوراً ونكدية، لكن ماذا أصنع؟ فأنا أحبه، أحبه إلى الدرجة التي لا أستطيع مشاركته مع أخرى... أنت النزيلة عليها وليس العكس... أعرف هذا لكني ما عدت قادرة على التفهم واستيعاب أن يده التي تمر على جسدي لها موطنٌ آخر غيري، نظراته الملتهبة الحارقة وهو يتطلع إليّ، أيبادلها النظرات والرغبة ذاتها؟! نبرة صوته الشغوف الحانية لها نصيب فيها؟ قبلاته لي أهي بذات الحرارة والشوق معها؟! أيروق له طبخي أم

طبخها؟! الأقرب إلى قلبه عطرها أم عطري؟! تصفيفة شعرها ولونه أم شعـ... أكاد أجن باتت المقارنة معها وسواساً يسيطر على عقلي وتفكيري أفقدتني لذة الحياة معه، فكل ما يصنعه لي يخف وهج بريقه وقيمته حين يداهم خاطري أنه قد صنعه لها أو سيقوم به لاحقاً، وما كلتانا سوى مرآة لبعض! هذه الفكرة الفجة تحطم وجداني، وتسحق فؤادي، أضحى صعباً عليّ بل مستحيلاً أن أشاركه مع أخرى! وأتنازع معها على مساحة أكبر في قلبه! في استنزاف مهين لطاقتي من أجل كسب حبه ومزيدٍ من وقته! مناقضة إيماني بأن الحب يستوطن القلوب كجدول ماء عذب لا يحتاج إلى كري أو تصحيح مسار.

لم تعِ كم مر من الوقت على وقوفها قرب النافذة شاردة، لكنها أدركت أن الفجر موشك، فتوجهت نحو السرير مندسة برفق على مسافة من زوجها الغاط بشخيره... لا أدري بماذا أخطأت أو ما الذي فاتني؟ كيف تسرب الملل ومعه الروتين والرتابة إلى حياتنا ففترت المشاعر وبرد الشوق...

- المشاعر بعد الزواج تتغير يا ابنتي فلا تنجرفي خلف عاطفتك...

- إلا نحن، فحبي له لا يوصف ومثله حبه، نحن نختلف يا أمي فلا تقلقي أرجوك. أأندم لأني لم استمع لنصيحتك وأتلقى الخيبات صامتة أم؟!... وفجأة وثبت من سريرها إلى هاتفها كأنها ممسوسة، آخذة بالكتابة:

زوجي الحبيب

ما خطر ببالي مرة أن أكتب لك هذه السطور، ولكن بعد التفكير المطول أجدني مجبرة على تحرير روحي من أغلالها والبوح لك بمكنوناتها، توقفت أصابعها عن النقر على الحروف، ضغطت على صدغها، راجعت ما كتبته فحاولت الضغط على مؤشر المسح لكنها أرجأت الفكرة معاودة النقر، يحزنني للغاية أن أقول لك بأننا قد فشلنا في العيش معاً وفق أسلوبك ومتطلبات ظروفك التي معها فقدت أولويتي في حبك واهتمامك، وبات انتظار سماع صوت المفتاح في قفله أقصى أمانيّ أو انتظار رسالة نصية صغيرة تسرقها على عجالة من وقت عائلتك وفي غفلة من أنظار زوجتك التي لا تكف عن اختلاق الفرص والمناسبات كي تؤخرك عني مطفأة جذوة حماسك لي بأموركما العائلية المشتركة، ولا مجال هنا للمزيد من العتاب والشكوى والتذمر الذي بسببه دعوتني بالنكدية أو مفرطة الحساسية حتى أوشكت على

تصديقك وتكذيب حدسي وإحساسي، كفكفت دموعاً حجبت عنها شاشة الهاتف، فلا مزيد بعد اليوم من المهاترات والشجارات التي مبعثها حبي الكبير لك، أو ربما وهم الحب وهذا ما سأتبين حقيقته لاحقاً، واسترسلت مستذكرة أحاديثه ووعوده في أول علاقتهما مدركة أنها لا تختلف شيئاً عن تلك المرأة التي عادت إلى طاولتها ولا شيء معها سوى كلمات، كلمات الحب التي قطعت أنفاسها وغيبت عقلها عن تصويب الأمور، باصمة بعشر أصابع على صدق من قال أن مرآة الحب عمياء، يؤسفني قول ذلك، لكنني فعلاً بت متوجسة كثيرة الشك، فاقدة للثقة والإيمان بذلك الحب الذي أدعيت بأنه الأقدس في حياتك وقد بدأنا ندق مسامير نعشه بعد فترة وجيزة من زواجنا، وها أنا أدق الآن المسمار الأخير، فلا مزيد من الانتظار المضني والترقب لأوكرة الباب تدور... وداعاً.

بعثت بالرسالة إلى هاتفه وشرعت بهدوء الواثق من قراره تجمع ملابسها في حقيبة عرسها التي رافقتها إلى عش الزوجية مشيعة بالهلاهل والأهازيج والأماني العريضات.

هرج ومرج يتعالى صداه أمام مبنى البلدية، أهالي القرية يحتشدون بلافتاتهم المعارضة وتلك المطالبة بالإبقاء على شجرتهم الحارسة، الشجرة الأم، وعدم المساس بها بأي شكل وتحت أي ظرف حتى لو كلفهم خسارة خط السكة الحديدية الذي ترقبوا وصوله من زمن.

يتفصد العرق على وجوههم التي لوحتها الشمس، ينفد صبرهم، فترتفع أصواتهم أملاً في لقاء مدير البلدية أو من ينوب عنه لرفع التماسهم مجدداً إلى السيد المحافظ الذي اطلع على استغاثة الأهالي المكفولة بتواقيعهم ساخراً من سذاجتهم وعفوية طبيعتهم ونزعتهم البسيطة غير المتجاوبة مع تجليات المستقبل ووقائعه مغمغماً: لا أفهم كيف يفكر أولئك الفلاحون؟! ما أصدق من قال أن الجهل عدو الشعوب.

وحدها من تعرف الحكاية

جمع غفير حول الشجرة في حلقات يزداد قطرها اتساعاً كل حين، حتى أن بعضهم بسطوا سفراً جماعية لتناول العشاء على مصابيح كهربائية الشحن، وهم آخرون بالتقاط الصور وتسجيل فيديوات يشاركون نشرها على وسائل التواصل الاجتماعي طلباً في المساندة وإيصال موقفهم إلى جهات عليا متنفذة.

لا أفهم ماذا يفعلون! جنس غريب لا يدرك معنى الحياة رغم تكالبه عليها، ولا أظنه يعيشها وفق نسق يكفل له الراحة والرضا، غريبون فعلاً! لأنظر ما خطبهم في هذا العراء مجتمعين! أعرف أني أصبحت فضولياً بشكل بغيض لا يدع مجالاً للعذر سوى أنها ليلتي الأخيرة على الأغلب في عالمهم هو الأكثر غرابة وانسجاماً وتناقضاً.

تمدد الشيوخ بأجسادهم العظمية المنهكة على بسط خفيفة متخذين من أيديهم وسائد لرؤوس ابيضت أو نزح شعرها متراجعاً، فيما الشباب يقاومون نعاسهم بالجلوس

وشـرب الشـاي وتبـادل الأحاديـث أو الانكبـاب علـى هـواتفهم مترصـدين تعـاطف الـرأي العـام مـع قضـيتهم ومساندتهم في رفع قرار الإزالة الظالم، وتشييد سكة لا يتعارض طريقها مع شجرتهم، فأخذ أحد المتحمسين على عاتقه نقل القصص والحكايا حول الشجرة الأم من أفواه شيوخهم الذين لعبوا تحت فيئها صغاراً والشاهدة على مناوراتهم ونزواتهم العاطفية شباباً، فاجترع أحدهم غصته مبادراً وفي عينيه ظلال دمعة فضحها القمر: أنا يا سادة ولدت تحت هذه الشجرة، سرت همهمة، نعم ولدت تحتها تماماً حين أمسك بأمي الطلق الشديد وهي في طريقها إلى الشارع الإسفلتي بانتظار أبي الذي ضل طريقه عن القرية إلى هذا اليوم، كانت كل يوم تستل نفسها من أنظار أهل القرية وسؤالهم، لتجلس والقمر تحت هذه الشجرة بانتظار زوجها الغائب الذي لم يسلم من خيالات الناس وتقولاتهم، ناسجين حوله الكثير من القصص والإشاعات التي لم تعرها والدتي بالاً، مكذبة الجميع مخرسة ألسنتهم بتجلدها وصبرها في رد أذاهم عنها، والمدهش في الأمر أني أصبحت رفيق والدتي وسميرها الليلي حتى وافاها الأجل الذي لم يمنعني عن تلك الزيارة الليلية لهذه الشجرة كنوع من الوفاء لذكرى

أمي التي ماتت بحسرة السؤال عن مصير زوجها الذي لفه نسيان القرية وظل عالقاً في رأسها دون إجابة: أبوك ليش عافنا؟ وين اختفى؟ خاف أكلته الذياب؟ لو تزوج وحده غيري؟ كنت أضحك من أسئلتها التي ما تبرح تلوكها تحت فكين هرمين أجردين انحسرت أغلب أسنانهما، وأنا ما أفتأ أجيبها: يا يمه بعدج تسألين عنه، ادعي له بالرحمة إن كان حياً أو ميتاً، فتلوذ بالصمت متمتمة: أبالدعاء له أم عليه؟! كفكف دمعته بكم دشداشة عتيقة بهت لونها الحقيقي وخف نسيجها، فساد الصمت بين الحضور دهشة وتعاطفاً مع الشيخ أبو كريم، ولتلطيف زخم شحنة الحديث أردف الشاب الماسك بهاتفه يسجل ويلتقط الصور: والآن مع قصة أخرى يرويها أحد الحاضرين، متلفتاً في الوجوه التي يتنازع الليل والقمر في بسط ظلاله عليها.

تردد أحدهم في رفع يده وقد بانت عليه علائم الخجل، تنحنح، شحذ صوته، نفث دخان سيجارته مغمض العينين، حاول التراجع لكن شيئاً ما دفع تعابير وجهه إلى الانقباض، ساحباً نفساً آخر من سيجارته الموشكة على الانتهاء مغمغماً بكلمات لم تلتقطها أذن من يجلس جنبه، لكنه تشجع على القول بصوت واضح:

لا أدري إن كان يحق لي سرد هذه القصة؟ متفحصاً الوجوه المترقبة المشحونة بالفضول وقد صدر عن بعضها همهمات التشجيع، فأردف: حدث منذ وقت طويل بعيد أن كانت هذه الشجرة ساعي بريداً أميناً بين الفتى الخجول الفقير الذي لا يطال سقف بيته الطيني البسيط علو جدار ابنة صاحب البيت الطابوقي الحديث الطراز نسبة إلى ذلك الوقت، فقاطعه بعض الشيوخ بقصد تكهن اسم الفتاة أو موقع بيتها، لكنه رفض أي تلميح صدر منهم مهدداً بعدم إكمال القصة إن قاطعوه ثانية، واثق أن قصتي لا تختلف عن كثير من قصص الحب التي تقف أمامها الظروف الاجتماعية المتناقضة والكثير من الشرائع التي نظمها البشر والتي لم تكن حينها بحسبان حبيبين تعاهدا على الإخلاص والحب.

مشيراً نحو الشجرة التي أحيط جذعها العريض بالتمائم والخيوط المعقودة على أمل انفكاكها، كانت الشاهد الوحيد على الدموع التي هدرت عندها في خضم ليل شتاء وقمر يناور البزوغ خلف غيوم سوداء ثقيلة، حين جاءت تحمل معها متاعاً يسيراً من ثيابها وبعض حاجاتها، طالبة الهروب والتخلي عن كل شيء لأجل إنقاذ حبنا الذي تطيح به وتدوسه أقدام العادات والتقاليد،

لكني من هول المفاجأة رفضت، بالأحرى جبنت على المضي معها في دروب الهروب المجهولة الوعرة، لم أكن مستعداً لمثل تلك المغامرة التي باغتتني بها، وأنا البائس الذي يجلس أسابيع مستغرقاً في تفكيره كي يحرك حجراً من جرف نهر إلى آخر، أخ أخ أخ كم خذلت آمالها؟! وكم خابت ظنونها في رجولة ادعيتها يوماً؟! مد سيجارته المنطفئة بيد معرورقة مرتجفة إلى فم تقوس وغارت شفاهه نافثاً شعوره بالحسرة والكثير من الألم والندم.

لم ولن أنسى نظراتها القانطة الخائبة وهي تودعني تحت الشجرة عائدة إلى البيت مكسورة الفؤاد، أبيع عمري كله لأجل تلك الدقائق الثمينة كي أخذ بيدها فارين بعيداً بعيداً عن كل المحذورات والقواعد، ليت الزمن يعود، ليته يعود لأصحح خطأي الذي لن أغفره لنفسي، ما أبرح أذكر ظهرها المنحني خذلاناً خلف عباءتها، صفحة وجهها المصدوم، خطواتها المتئدة المتراجعة على أمل أن أشحذ جذوة شجاعتي منادياً عليها، لكني مكثت متسمراً في مكاني صامتاً متبلداً أرقب بهدوء الأموات ظلها المحتجب شيئاً فشيء، تحشرج صوته بغصة كادت أن تنهمر دموعه على إثرها لولا

صديقه الجالس قربه أن هدأ روعه بطبطبة حانية على كتفه متمتماً بصوت خفيض هامس: أذكر الله يا رجل، أذكر الله.

لم تمر إلا بضعة أيام على تلك الحادثة حتى فاح في القرية وانتشر خبر زواجها من ابن عمها والسفر معه إلى مدينة أخرى لم أتوصل إلى معرفتها لكثرة اللغط الدائر على ألسنة النسوة اللاتي تداولن الخبر بالكثير من البهارات والمطيبات كمهرها الذي بلغت دنانيره عنان السماء، لا أخفيكم أن الخبر قد هزني وأجلسني طريح الفراش غير مصدق أن حبيبتي قد رحلت، لعنت الفقر والفقراء وكرهت نفسي إلى يومنا هذا، نهض فجأة من جلسته نحو الشجرة باحثاً بين شقوق جذعها المجوفة مخرجاً لفافة ورق اصفر لونها واهترأ: ها هي يا سادة آخر رسالة بعثت بها إليها راجياً أن تأتي يوماً وتتسلمها كما في السنين الخوالي، مجهشاً في البكاء ممزقاً الرسالة التي على ما أظن تشوهت حروفها وانزاحت عن مواقعها، لن تأتي، فطعم الخذلان مر يبقى عالقاً في الذاكرة مهما تقادم بنا الوقت، لن تأتي.

لا أسمع حديثهم كاملاً وإن تعالت أصواتهم بين الحين والآخر، لكني أستطيع التخمين بمجرى أحاديثهم من تجهم وجوههم أو انفراجها، جموع في تقاطر قادمة،

لا أفهم ماذا يجري معهم بالضبط، لكن المؤكد أن خطباً عظيماً قد زلزل نفوسهم، مساكين حقاً فبرغم حياتهم القصيرة يحملون على أكتافهم ما لا طاقة لهم على حمله... مساكين.

ثقل الهواء وعمت لدقائق سكينة مضجرة فصاح أحد الشيوخ بصوت مخلخل متعب، وقد أسند ظهره المحدودب النحيل على جذع الشجرة متكئاً بوجهه الأسمر المتغضن على يد هزيلة ذاب شحهما وبرزت عظامها: أما أنا فقصتي تختلف عما سواها، سرت همهمة معارضة، صدقوني أنها مختلفة، وأظن أن أوان انزياحها عن صدري قد جاء، فدعوني أقصها عليكم دون مقاطعة، عقص حاجبيه الأشيبين، بوز فمه ورفع أرنبة أنفه استعداداً وتمهيداً بعد أن اعتدل في جلسته عاقداً يديه ببعضهما في حضن عظمي أجوف، الكثير منكم لا يعرف عني سوى أني عبود الدفان الذي لا تأتي على ذكره القرية إلا عندما ينزل المصاب بأحدهم، لكن بعض الشيوخ الموجودين هنا، مشيراً نحوهم، يعرف جزءً موجزاً من قصتي أو بالأحرى زائفاً، عمت غمغمة بينهم قطعها باسترسال واثق، نعم قصتي المزيفة التي عشت بها معكم سنوات طوالاً نسيت عدها، قد تتذكرون عبود

الشاب الذي قدم وحيداً إلى قريتكم فاراً من ثأر عشائري كما أخبرتكم، إلا أن الحقيقة تختلف تماماً، أنا يا سادة عبود الحرامي، همس وتعجب طال الوجوه، نعم عبود الحرامي الهارب من مدينته بعد سرقة محل أحد التجار برفقة صديقيه، لاحقتنا الشرطة وضيعت أثرنا عند حدود هذه القرية، وهنا عند هذه الشجرة تفرقنا نحن الثلاثة، تفحص بابتسامة صغيرة غلب عليها الخبث العيون المترقبة المتشوقة لباقي القصة، هنا عند هذه الشجرة دفنتهما، كانا سماداً وافراً لها، علت غمغمة واستهجان، وبعضهم علق قائلاً: الرجاء يا أخوة لا تأخذوا كلام عبود على محمل الجد، يبدو أن للعمر ضريبة، وعبود قد طاله الخرف...، كلا أنا واثق، هنا دفنتهما، كانا وغدين معي، فتغديت بهما قبل أن يكملا مخططهما للإيقاع بي، وما أن جن الليل وأخذهما النعاس نحرتهما بهدوء العارف، أغلق عينيه واصفاً شلال الدم الدافئ المنبثق من الشريان وبقعة الدم والرأسان الساقطان فيها، العيون المفتوحة رعباً، أودعتهما طعاماً لهذه الشجرة، فجالت الأنظار حول الشجرة في تخمين مكان قبريهما، لا تشغلوا أنفسكم لقد سويت قبرهما جيداً، لكن بإمكانكم قراءة سورة الفاتحة على روحيهما كما أفعل أنا في بعض الأحيان، لا أود أن

أكون نذلاً مثلهما، سرى لغط بين الحضور تشوبه الحسرة على عبود الدفان الذي فقد عقله وجن، وتكلف بعض الشباب بإسناده وأخذه إلى بيته المواجه لمدفن القرية المشرع على السبخ الفسيح.

فكر بعضهم بنبش المكان الذي أشار إليه عبود الدفان والتأكد من صحة كلامه وبين مصدق ومكذب أو حتى شاك بقصته اتفقوا على عدم الخوض فيها وأن من شأن هكذا قصة أن تضعف قضيتهم الأساسية وتحيل الأنظار عنها، فبدأ الشباب بترديد واحدة من الأغاني الشعبية على إيقاع كفوفهم المصفقة في نية تخفيف الوجوم الذي طال أجواء جلستهم الاحتجاجية.

الليل يرخي سدوله أكثر، ونسمات الهواء يلطف وقعها على وجوههم، فتتثاءب الأفواه وتثقل الجفون لولا مباغتة أحد الشباب النشطين أن دار عليهم بأكواب الشاي الفواحة برائحة وطعم الهال، فدب الحماس ثانية في العروق وجرت على ألسنتهم المنكهة بالشاي والتبغ ما صاغته جداتهم من قصص حول شجرتهم المباركة فأشار أحدهم: سمعت ذات مرة جدتي تقول بأن أصل هذه الشجرة هنديٌ، وأن مزارعاً مر من هنا حين سقطت منه بطريق الصدفة بذرة شجرتنا التي كيفت نفسها على

العيش وحيدة بعيداً عن شقيقاتها في غابة الغار، وأضافت جدتي: أن الأوائل كانوا يسمعون نوح وشجن هذه الشجرة افتقاداً، حتى أن بعض الفلاحين فكروا ملياً في جمعها بأهلها لكن مصاعب وتكاليف نقلها والخشية على موتها أثناء النقل أرجأت الفكرة وأبطلتها مع الوقت عندما تبادر إلى أسماعهم من بعض الأهالي أن جناً عاشقا يسكنها وما ذاك الأنين الصادر عنها سوى صوت نشيجه وربما سرح خيال بعضهم عميقاً في تصوير مدى جمال ابنة تاجر التمور التي وقع في غرامها الجن متسبباً في موتها دون قصد عندما أدركت أن معشوقها الوسيم الساحر ليس بشرياً، فقاطعه أحد الجالسين قائلاً: حديث جدتك مغاير للغاية مع حديث جدي الذي رافق ذلك الجندي الإنكليزي ساعاته الأخيرة قبل نقله جريحاً إلى مستشفى المدينة، حيث وعد جدي بالعودة واللقاء في هذا المكان الذي زرعا فيه هذه الشجرة، فسأل أحدهم بعينين فضوليتين: وهل التقيا؟!

- كلا، لم يلتقيا، فقد داوم جدي على رعاية الشجرة وانتظار رفيقه عندها، ولما مرت السنون أدرك أن رفيقه قد وافته المنية في بلاده.

لإنعاش الأجواء وإضفاء نوع من الألفة بينهم قام أحد الشباب بالتقاط صورٍ جماعية تؤكد تضامنهم جميعاً وتنديدهم التام لقرار البلدية بإزالة شجرتهم المعارضة لخط سير السكة الحديدية الجديد المزمع إنشائه لأجل وصل القرية بأهداب المدنية والتطور، كلا لن تكون شجرتهم القربان، وقام آخر بتوزيع دور جديد من أكواب الشاي، وقبل أن ينضم الشباب في صفين متقابلين للعب "لعبة المحيبس" هتف أحد الجلوس: أنا من يعرف سر ذلك الأنين والشجن لاسيما في تلك الليالي التي ينأى عنها القمر، فالتفتوا حوله وبأنظار نهمة فضولية، وحيث أن الإنسان بفطرته مولع بكشف الأسرار والتحري عنها، حثوه على الإسراع والتخلي عن وتيرة طبعه الهادئة وأسلوبه المتمهل في الحديث، وكأنه يلوك كلماته تحت أضراسه قبل أن يطلقها من لسانه، وبوجهه الأسمر المدعوك بتراب القرية وماء جداولها، وشعره الشائب المنكوش الذي لا يرى من بد في حلاقته كل شهرين أو أكثر، كنت صغيراً لا يتجاوز عمري عشر سنوات حين لمحتهم من خلف تل صغير في الماضي كان هناك، مشيراً إلى بقعة قريبة، كانوا أربعة رجال يتخبطون في مشيهم متمادين في رفع أصواتهم الصادحة بأهازيج

وأغاني شعبية ما برحت الفتاة الغجرية تغنيها في حفل عرس واحد من أبناء القرية، لم أستطع تمييزهم جميعاً لكني واثق كل الثقة من هوية اثنين منهما، ماذا حصل؟ هيا أكمل، بقيت ذبذبات صوته هادئة وبعينين نعستين وجبهة ضيقة أردف: استرعى انتباههم وجود الغجرية التي أنهت وصلتها الطربية الراقصة إلى جانب الشجرة بانتظار باقي عائلتها التي تفاصل في الأجرة وجمع بعض الهدايا والإكراميات من مترفي القرية ووجهائها، فجأة علا صوتها في سباب وشتيمة لأولئك الرجال السكارى، دفعتهم عنها، قاومتهم بشدة، انهالوا عليها بالضرب، كمم أحدهم فمها والآخر أمسك ذراعيها وهي ما تزال ترفس معترضة هائجة مستنجدة، حينها ارتعدت من الخوف دون أن أفهم ماذا يجري لكني أدركت بعد دقائق أنها باتت صامتة لا تتحرك فيما هرب أولئك نحو الحقول، ومن شدة فزعي جريت أنا الآخر إلى البيت ونمت دون أن أنبس ببنت شفة حتى الصباح حين قصت أمي ما خبرته من الجارات على والدي الذي تغير لونه وابتلع صوته، عن مقتل الغجرية خنقاً وفجيعة والديها العجوزين اللذين تبينا ابنتهما جثة هامدة بنصف ملابسها.

عم استياء بين الحاضرين، ومطالبة بعضهم بالكشف عن أسماء أولئك القتلة المجرمين، فتوقف عن الحديث وقد علت ملامحه الحيرة والتردد، بانتظار أن يعيروه سمعهم ثانية، تنحنح، اختلجت كلماته وتشظت لكن ثمة بريق يبزغ في عينيه التعبتين قائلا: هل تعلمون يا سادة كم صعب عليّ النوم في تلك الليلة بعد أن تسللت إلى البيت على أطراف أصابعي خشية أن يدراكوا وجودي أولئك السكارى القتلة، ومن حينها ما بارحتني الكوابيس الليلية ومطاردة تلك الغجرية لي، صريخها المستغيث طلباً في أخذ حقها والبوح بأسماء قاتليها كي تنعم روحها بالسلام، صوت مقاطع يسأله بحماس: ولماذا لم تبلغ عنهم الشرطة؟!

تمعن في وجوههم المتيقظة المتصدرة بنظرات الفضول مردفاً: كنت صغيراً ولست بالشجاعة الكافية كي أبوح بذلك السر الذي أثقل صدري ونكد عليّ عيشي حتى الآن، صوت يرتفع: إذن قله ماذا تنتظر، أصوات أخرى توافقه الرأي: هذا هو الوقت المناسب لتريح ضميرك، هذا هو الوقت المناسب، فأجابهم: صدقوني ليس بالسهل فعل ذلك، ليس بالسهل، متكئاً بذقنه على

راحة يده متأملاً في كلامهم نافثاً حسرة ثقيلة، ولا أدري أمن الضروري بعد تلك السنوات أن أكشف السر؟!

حثه الحاضرون على الإفصاح بأسماء أولئك الأوغاد وإن فات على ذلك ما يقارب ربع قرن، لكن الجريمة تبقى جريمة والقاتل ينال عقابه مهما تأخر، كان واثقاً من صحة رأيهم لكنه لم يكن مطمئناً لسلامة نفوسهم في ابتغاء الحق والفضيلة، فسأله أحدهم: هل من بين أولئك القتلة حاضر الآن معنا؟ عم الصمت المشحون بالترقب وهلة حتى أجابهم: ليس واحداً بل ثلاثة، فليت واحداً منهم على الأقل يعترف بجريمته كنوع من التكفير عن ذنبه.

مسترسلاً بنظرات شاردة وصوت مستسلم: بالمجمل يا سادة لقد ضاعت طفولتي وشعوري بالأمان منذ تلك الليلة المشؤومة، فيا لوحشيتهم! واستأذن منصرفاً وعلى طرف عينيه دمعة ساخنة وعلى وجوه الجالسين شبح دهشة وكلمات ضلت عالقة على أفواههم بين التصديق والتكذيب لما سمعوا.

في عليائي البعيدة الموحشة أرقبهم وأحسدهم، متمنياً لو كنت واحداً منهم، أنتمي إلى عالمهم الصغير هذا،

ويحي أبعد هذا العمر الموغل في طوله أحسد أولئك؟! وأرغب بضعفهم، ليتني عرفتهم من قبل، ليتني.

أوشك الجميع على النوم بعد جلسة امتدت ساعات تخللها الكثير من القصص والحكايا وحصدت آلاف المشاهدات والتعليقات المساندة ومثلها الإعجابات، متصدرة الأخبار بهاشتاگ #أمنا الشجرة وآخر #أنقذوا الشجرة والكثير الكثير منها، والحمامة في عشها ترقد على بيضها في وجل وخشية من قطع شجرتها التي قضت عمرها عليها وتخريب عشها شاعرة بالمرارة والقهر على أفراخها التي لم يفقسوا من البيض بعد، أي حظ عاثر هذا؟ أن تكون بلا مأوى ووطن أنت وأبناؤك!

زوجتي الحبيبة

بالكاد حصلت على ورقة وقلم من أحد الزملاء، وها أنا أتردد بالكتابة، فلا شيء جديد أو أمل منتظر، السماء متجهمة طافحة بغيوم حبلى ورعد يشاكس أصوات المدافع مقلداً وقد بدأ الليل يدنو بظلمته الثقيلة الموحشة، فنرتعد في الخنادق وبجلسة القرفصاء نحتمي ببعضنا متآزرين على قذائف يهز أزيزها أوتار قلوبنا الضعيفة، وعلى أصوات انفجاراتها ننظر لبعض حامدين الله أنها لم تدركنا.

الليل مخيف خانق يبعث الذكريات من مكامنها البعيدة فتغص عيوننا بدموع تتنافى مع رجولتنا فنكفكفها على عجل حياء، ولا يغير وجوم وجوهنا المرهقة سوى بعض النكات التي نسخر بها على بعضنا بعضاً أو حتى من أنفسنا أحياناً كثيرة في خندق برائحة الخوف والعفن يرتفع سقفه.

حبيبتي أن أشد ما يوجع قلبي ويمزق وجداني

أن تمضــي أيامــك وحيــدة دونــي، وأن أقضــي ساعاتي جاثياً على نفسي أكثـر الوقـت خشـية قناص يترصد جبهتـي أو قلبـي، لا نبعـد عـنهم سـوى أمتـار، نـراهم ويلمحوننـا، نسـمع قرقعـة أصواتهم وينصتون إلى وقـع خطواتنـا، جميعنـا خائفون بانتظار تلك اللحظة التي يتوقـف فيهـا زمننا وتنجلي سـاعتنا، لكـن لا تخشـي سـأحفظ هذه الرسالة لك في جيبي.

رسالة في جيبي

القمر يلقي بنوره على وجه الشاطئ إثر رحيل الشمس البطيء خلف رؤوس أشجار النخيل البعيدة، نسائم الهواء منعشة، القوارب الخشبية العتيقة تمخر عباب الماء في حماس مع أكف وأهازيج الراكبين، جموع مزدانة تقضي نهاية الأسبوع على الكورنيش، مصابيح الشارع يرتفع ضوؤها، بسطات الذرة والحمص ينتشر شذاها، أصوات قطع الدومينو ومثلها صوت النرد على طاولات المقاهي يتمازج مع إيقاع الأغاني ونشوة اللاعبين، فضول بعض المارة ولمزهم كنوع من الحسد والضغينة ربما على تلك الأيادي المتعانقة أو التي تحمل وردة جورية حمراء لاهبة.

تشد انتباهي تلك المخلوقة الصغيرة والتي تدعى طفلة بتصنيفهم البشري، تروح جيئة وذهاباً على الطريق ذاته وبين تلك الجموع تندس عارضة عليهم ما في يدها، تتوسلهم بنظراتها البريئة، وأنا ما أبرح أشعر بالأسف على

نفسي، لماذا لم نكتشف أنا وصديقي هذا العالم من قبل؟ ولماذا الآن بعد فوات الوقت؟! حيث أكابد آلام الانصهار والتآكل السريع القاتل، النهاية الحتمية لنجم عاش ملايين السنين دائراً في عتمة فراغ مهول لا نهاية له.

ما تزال نصف الباقة في يدي، وقدماي تورمتا، الحذاء عتيق يضيق على أصابعي ويشد، لكن لا مجال لشراء واحد جديد، يا رب لا تجعل قدميّ ينموان أكثر، رافعة رأسها نحو السماء، ليس معنا نقود، وطيف ابتسامة يفاجئ ثغرها الطفولي حين لمحت طائرة تشق صفحة السماء عنوة بأنوار مصابيحها اللامعة ومن ثم تختفي شيئاً فشيئاً ورأسها المرفوع يتابع شغفاً، يوماً ما سنصعد على متنها ونحلق فوق الغيوم، ربما سأشعر بالخوف قليلاً، لكني لن أظهر ذلك لأمي التي تحلم بزيارة بيت الله، وكم هو جميل لو نصادف أبي مقيماً على غيمة بانتظارنا، فلا تذهب للجنة يا أبي قبل أن نلتقيك، معلمة الصف قالت: أن الشهداء في الجنة، فأرجوك يا أبي إبقَ بانتظارنا، أود أن أراك مرة واحدة، لا أنكر أنك ما تفتأ تزورني في الأحلام بثيابك البيض وابتسامتك الوادعة التي لا تغادر صورتك المسمرة على الحائط وقد نهش الشريط الأسود جانبها، وأنت تراقبنا على سفرة الطعام مصغياً لأحاديثنا،

وكم من مرة طلبت مشورتك وعونك لكنك لا تجيب، بعض التلاميذ لا يكفون عن مضايقتي ونعتي بصفات لا أدري مدى صدقها لكنها على العموم جارحة ومحرجة تجعل الآخرين يضحكون، ملابسي ليست بالجديدة لكنها نظيفة كذلك شعري بذيل الحصان مشدود مرتب وما من قملة تسكنه، حقيبتي مهترئ جلدها لكنها قادرة على حمل كتبي ولفافة الخبز بالخيار والطماطم، يداي خشنتان بعض الشيء لكن أظافري نظيفة تواظب أمي على تقليمها، ولن أتبجح بحذائي القاسي الجلد وسأواصل الدعاء إلى الله أن لا تنمو قدماي... أتعلم يا أبي أن الحظ لا يرافق الفقراء لذلك أكون في طليعة من تعاقبهم المعلمة التي ما تلبث تسخر مني ومن عدم استحقاقي لعينين خضراوين، وكأن الفقراء لا يستحقون إلا الفقر! وهل العيون الخضر مكافأة؟! أبي أما كان عليك أن تبقى معنا بدل العيش في الجنة وحيداً؟!

لا أشك أن أمي ستخيط لي فستاناً مبهراً من الستان والدانتيل يشبه فساتين عيد ميلادي الذي لا تجيد أمي حفظ تاريخه فينسل من بين أيام السنة دون تذكره ولو بقطعة كيك، بذلك الفستان الساحر سنلتقيك يا أبي، لا تقلق لن أقابلك بملابسي هذه المخاطة من زوائد وبقايا

قماش الزبونات اللواتي خفت أقدامهن إلى أمي لارتفاع حظوظ الملابس الجاهزة، فانزوت الفراشة الفاردة جناحيها على جسد مكينة أمي وغيرنا مكان إقامتنا بضع مرات منتهين بغرفة يستر نوافذها الورق المقوى وبعض قطع البلاستك ولا يرد سقفها الصفيحي عنا صوت حبات المطر، واحدة تلو الأخرى ومن ثم يثخن ويثقل نازلاً في خيط رفيع أو نقاط متسارعة في أوعية المطبخ نزرعها أنا وأمي هنا وهناك في أنحاء الغرفة مع الدعاء بانقطاعه قبل أن نطفو فوق سجادة عتيقة اشترتها أمي من سوق الجمعة ذات مرة بعد مساومة بائعها الفقير أيضاً الذي تعاطف معنا في دعم جلي واضح لفريق الفقر الذي يتناسل أفراده بشكل مضطرب مخيف كما أومأت أمي، وكأنها قلقة على مركزية عضويتها في ذلك الفريق.

ماذا أفعل، لم أبع سوى نصف الباقة؟ متفحصة النقود في جيبها مغمغمة، لن تكفي لشراء بخاخ الربو، سأبيع الوردتين، ثنين بخمس تالاف، ثنين بخمس تالاف، عل الناس يقبلون على الشراء دون مساومة وتردد، لمحت شاباً مع حبيبته يتكئان على الظلمة فوق مسطبة قصية، فاتجهت نحوهما مباشرة، اشتري لهاي الحلوه جوريه، ثنين بخمس تالاف، فاختار وردتين، وبعينين لامعتين

مشرقتين مد يده بواحدة إلى حبيبته وأخرى إليها، لا ما يجوز أخذهن ثنينهن إلك، مصرة على الشاب الذي دفع خمسة آلاف مقابل جورية واحدة لحبيبته أخذ الوردة الأخرى التي أهداها لها، هذه المرة الأولى التي يهديني فيها أحدهم وردة، مبتعدة عنهما بابتسامة زادت من جمالها دعة وانشراحاً، الحمد لله أنها لم تشعر بالغيرة مني مثل تلك الصبية المجنونة التي خاصمت حبيبها على مزاحه البريء معي: الله شنو هاي العيون الحلوه!.. ما تبيعيهن؟! والذي جرى خلفها بالوردة مسترضياً ناسياً دفع ثمنها، ثنين بخمس تالاف، ثنين بخمس تالاف، لا أفهم لِمَ الإقبال قليل على الشاطيء رغم أنها ليلة الجمعة! ما بال الأحبة أين هم؟! وبيع الورد يقتصر عليهم في الغالب، رغم أن بعضهن تفضل شراء سندويج همبرگر أو راس عرنوص ههه على وردة، لا أفهم طبيعة بعض الإناث وأولوياتهن، وكيف أمي ما تزال تحفظ رفات وردة جورية في دفترها الأثير، أهداها لها والدي في لقائهما الأول! ربما أن تحنيط الورود وخنقها بين الأوراق سبيل لا تعرفه بنات اليوم!

ثنين بخمس تالاف، ثنين بخمس تالاف، مقتربة من عائلة حيث الزوجان يبحثان عن بعض الدعة والهدوء

ومن حولهما أولادهما الثلاثة، ما تشتري لمرتك جوريه؟! رجاء مغموس بأمل ونظرة مستعطفة تطريها ابتسامة بريئة، تأملاها مشفقين، ماداً يده نحو جيب صدره، فيما زوجته تنتقي وردتها مهمهمة: حرامات طفلة بهذا الجمال تدور في الشوارع. هل تحتفظ هذه المرأة بوردتها كما تفعل أمي؟ انتابها هذا السؤال مع خاطر: ماذا لو كان أبي موجوداً معنا! ليته ما فضل الشهادة علينا، كنا سننعم بعائلة جميلة مثلهم، شاحذة خطواتها مبتعدة مكفكفة دموعاً انهالت على وجنتين لوحتهما الشمس ولم تفسد من توهجهما، لا أفهم لماذا فضل الشهادة؟! ولماذا علي تحمل وزر اليتم؟! ونظرات الشفقة أو الإهانات؟ لن أتزوج حينما أكبر، لن أنجب ابن شهيد آخر، لن أتزوج مثل أمي التي ترد عنها نظرات الجزار، وبائع الخضروات رافضة طلبهما عازمة على تربية ابنتها وحدها دون قبضة زوج أم، لا أمانع أن يكون صاحب الكرش المتراخي تحت دشداشة يمسكها حزام أسود يختبئ معظمه بين طيات الشحوم أبي الجديد، بشاربه الكثيف الأسود الذي يداوم على صبغه، وأسنانه الصفراء المعوجة وقد التوت على بعضها في تزاحم على فك رمادي اللون ضيق يظهر إلى العيان مع أصغر ابتسامة تبدر منه، بالنسبة لي هذه

مواصفات مقبولة، لكن أمي رفضت طلبه مفضلة زوجها الشهيد عليه، ثنين بخمس تالاف، ثنين بخمس تالاف... أن يكون أبي الجزار أو بائع الخضروات ليس بالأمر الصعب، فما لي أنا والأب الشهيد بابتسامته المنشرحة على الدوام حتى في أحلك ظروفنا قسوة، أشعر بالحقد عليه في مثل هذه المرات، أتهمه بالغباء والعبط، أمقت ابتسامته البلهاء، ولا استسيغ وسامته، شعره الأشقر المنمق التسريح، تقاطيعه الهادئة النائية بنفسها عن عجلة الزمن ومشاق الحياة، وأمي يعضها المرض والعوز وما تبرح ترمقه بحب وشوق أكاد ألمح على إثره دموعاً تنحدر على صفحة وجهها النحيف الشاحب، ووجهه ما يزال ورديا نابضاً بالشباب... أووه متى أنتهي من هذه الباقة؟ وتفحصت نقودها على أمل أن تجمع ثمن الدواء الذي تقايض عليه صاحب الصيدلية الجشع دون جدوى، لا أفهم لماذا يتجهم وجهه حالما يراني مقبلة عليه؟! وكأن نقود الفقراء أقل قيمة، ثنين بخمس تالاف، ثنين بخمس تالاف.

بات المشي مرهقاً مع حذائي الضيق هذا، قدماي متورمتان، فتجالس الشحاذة العجوز التي تتأفف من مشاركتها المكان الذي تعتبره خاصاً بها وحدها... لا

تخافين ما أريد أشاركج الجداوة، أمي تقول: الجداوه عيب، فتطلق العجوز شتائمها، محاولة إدراك غريمتها الصغيرة بعصاها الممدة على الأرض قربها، لكن الصغيرة تضع مسافة أمان يخترقها لسان العجوز ولا تصلها ذراع عصاها: إمشي عني بنت الچلاب، إمشي عني، إشجابچ يمي؟! نعله على والديچ، تغص العجوز بريق سبابها وتشرق، فتكسب المزيد من تعاطف المارة ودنانيرهم، يا لتلك العجوز الشيطانة المحظوظة! ما تفتأ تخدع الناس بعينيها الملتهبة الجفنين الحمراوين بشكل منفر، فيضاعفوا لها العطاء حمداً لله على ما ابتلاها به دونهم، حتى وصل الأمر ببعضهم في عرض المساعدة عليها وتحمل نفقات علاجها، لكنها رفضتها جميعاً لأسباب وتبريرات زائفة لا يعرف حقيقتها سوى الشحاذين، مستهجنة عملي في بيع الورد ومحدودية عائده، هازئة من مظهري المرتب... كنت صغيرة أشحذ مع أمي، لكن الأيدي مغلولة نحونا إلى أن نصحها أحدهم بمداومة وضع ماء الفلفل في عينيّ، ومن حينها بُسطت فاتسع ألمي وشقائي، فلماذا أمك لا تسم وجهك بجرح عميق أو تفقأ إحدى عينيك الجميلتين؟! ماتت في الأربعين من عمرها وأنا لم أكمل العاشرة بعد، لم أفتقدها ولم أحزن

على غيابها كما يفعل الأولاد رغم محاولتي في شحذ دمعة من عيني المريضتين وما استجابتا مثلما قلبها لم يستجب لنشيجي وعذابي المبرح وهي تداوم على قطر عينيّ بماء الفلفل كل ليلة، كل ليلة كصلاة لا تغفل عنها، فأشعر بالنار تخترق رأسي ويكوي جمرها روحي وإحساسي، كان الألم رهيباً، كوحش يمزقني بأنيابه، ليتها فقأت عيني موفرة علي متوالية العذاب الليلي ونهاراته الدامية المشوشة الصورة والداكنة الخيبات، شككت مراراً بصلة دمنا لولا الشبه الكبير بيننا ما كنت لأصدق أنها أمي، بسببها عافت نفسي الزواج وإنجاب أطفال أرمي بهم إلى الشارع بعاهات يدي من تصنعها لهم، في عالم الشحاذة يفوز الأكثر تضرراً وعاهة، هل كنت لأقطع يد أحدهم أو أعيب ساقه أو حتى أفقأ عينه؟! هيا انتهى وقتك، قومي من هنا ودعيني لحالي، وفكري في كلامي، فبيع هذه الورود السخيفة لن يوفر ثمن دواء أمك.

يفوز الأكثر تضرراً والأكبر عاهة، قانون مريب، يعني إذا ما فقأت عيني مطفأة نورها أو شاجة صفحة وجهي بجرح لا يغادرها أثره أتمكن من توفير الدواء لأمي العاجزة المريضة؟!... أطردي عن رأسك هذه الفكرة الغبية، لا تدعي العجوز الشيطانة تنفث سمها في

روحك... لكنها تقول الحق، تكاد ساقاي تتقطعان تعباً من التجوال في الشوارع بحثاً عن حبيب رومانسي يشتري لحبيبته وردة جورية بالكاد تسعد بها وترضى... ما لها الحياة بعين واحدة؟ حياتي زاهدة متقشفة فلمِ البذخ؟ عين واحدة تكفيها... لا تكوني مجنونة... عين واحدة كافية لمثل هذه الحياة، ماذا أرى بعينين أكثر مما أراه بعين واحدة؟ سأجمع الكثير من المال حينها ولا تعود أمي دائمة القلق والمرض وسنسافر إلى بيت الله، من يدري قد نلقاه على الطريق منتظراً... هو سبب كل مشاكلنا فلا تفكري به... شهيد... شهيد، شهيد، كم أمقت هذه الكلمة! وتلك العيون التي ترمقني بشفقة لحظية مذلة، في الغد الباكر سأتخلص من عين واحدة مجنبة نفسي تنمر تلك المعلمة التي طالما وجدت أني لا أستحقهما، العجوز الشحاذة حتماً ستدلني إلى فعل ذلك، يا لها من شيطانة!...

ثنين بخمس تالاف، شكد ساعتك؟

- سبعه وربع.

- شكراً.

ارتفعت وتيرة قلقها وهي تتفحص الباقة، يا رب ساعدني حتى أشتري لأمي بخاخ الربو، آآه لم يعد

بوسعي المشي، قدماي متورمتان، هل أنزع الحذاء وأمشي حافية؟... لا أراها فكرة صحيحة... لكن الحذاء يؤلمني أكثر... اصبري ليوم الغد، ولن تعودي بحاجة إلى حذاء، ليس من اللائق أن تخلعيه الآن عنك، لن يشتري منك أحد، ثنين بخمس تالاف، ثنين بخمس تالاف، ونزلت إلى ضفة الشاطئ معتلية صخرة ورامية بقدميها في الماء الدافئ مستشعرة بعض الراحة والهدوء، مستمتعة بمنظر الأسماك تتسابق بحثاً عن فتات الأطعمة، تمد أفواهها الصغيرة البنية المحمرة، محركة رؤسها وذيولها مختفية خلف الصخور... فقط أنا الوحيدة، كل من حولي لديهم عوائل، حتى السمك يعيش مجتمعاً! كم تمنيت أن يكون لدي أخوة، ليتك تركت لي واحداً على الأقل قبل أن تقبل على الشهادة، لكن للأسف كنت شحيحاً يا أبي الشهيد.

أدنو من الشاطى، أبعث بنوري مستهلكاً القدر الأخير من طاقتي، يا لروعة هذا المكان، يحفل بالدفء والمشاركة، من مكاني المرتفع المتفرد أشعر بالحسد والغيرة منهم، لماذا لم أكن واحداً منهم؟! لم أطلب أن أكون نجماً خاوياً يدور على نفسه ملايين المرات في عبثية عقيمة موحشة، وها أنا الآن أنزف ساعاتي الباقية

محتضراً وحيداً فارغاً ومليئاً بالرعب من مصيري الجديد المتوحش، من مقبرتي الأبدية، لم أفهم الكثير من سلوكياتهم في تلك الساعات المنصرمة، لكني أدرك، لا بل بت أشعر بحجم معاناتهم وما يكابدونه في حياة قصيرة، لن أضيع وقتي الثمين في الرثاء على حالي، واعتراه الفضول في تتبع أثر الطفلة بائعة الورد التي شدت انتباهه بخطواتها المتفائلة تارة والمترددة تارة أخرى بين الجموع المنسابة على الكورنيش.

لا تدري كم من الوقت مر بينما هي سارحة بنظرها مع مجموعة الأسماك الصغيرة التي أخذت بالابتعاد عن مسرى نور مصباح الشارع، فشعرت بالخيبة ملاحقة بنظراتها القارب المزدان بالمصابيح الملونة وهو يمخر وجه الشاطئ الدافئ مستئنساً بأهازيج ركابه، هي لم تستقله مرة بداعي الجري وراء لقمة العيش أولى، بالعيد من تصير أمي زينه نصعد بيه، ابتعد القارب كغمامة مضيئة طافية، خف صوت محركه، غالب النعاس جفونها فرأت أنها ترتدي فستاناً طويلاً أبيض لا قابلية لها على لملمته بينما هو يستطيل ويستطيل مباعداً بينها وبين والدتها التي اعتراها الفزع والبكاء في وداعها، فانتفضت من إغفاءتها القصيرة آخذة طريقها بعجالة بين الصخور نحو

الكورنيش بعد أن رمت فردتي حذائها في الماء بأقصى ما يمتلكه ذراعها الأيمن من قوة، طفى إحداهما واختفى الآخر... وكيف تذهبين إلى المدرسة في الغد؟!... لن أذهب، لست بحاجة إلى سماع المزيد من السخرية، لن يلحظ أحدٌ غيابي، فلا صديقة تفتقدني، وأغلب التلامذة يتحاشون الدنو مني كمرض معدٍ، وابن المعلمة هو الذي تجرأ قائلا: أنت جميلة لولا أنك فقيرة، لن أذهب بعد اليوم إلى تلك المدرسة، سأشق طريقاً آخر يملأ جيبي بالنقود... ستخسرين عينك، وجهك الجميل سيتشوه!... ليس مهماً حجم الخسارة ما دامت البطن شبعة، ثنين بخمس تالاف، ثنين بخمس تالاف...

هل من الصعب عليك يا الله أن تنجدني بواحد يشتري ما تبقى من الباقة دفعة واحدة؟!... نعم تماماً حينما طارت البالونات الملونة دفعة واحدة متحررة من قبضة يدك وملأت السماء والوجوه ابتسامة ودهشة... كان الموقف حرجاً للغاية... لكنه جميل، وبعث الله لي بالعوض أن دفع أحد المارة ثمنها وهو ما يبرح يضحك منشرحاً كطفل يراقبها محلقة مرتفعة بعيداً، أرجوك أرسل لي ذلك الميسور الذي يخلصني من عنائي، وتفحصت نقودها ثانية، ما يزال المبلغ ناقصاً، وليس باستطاعتي

تحمل سهام نظرات ذلك الصيدلي ووجهه العابس البغيض، لن يبيعني حبة دواء واحدة حتى يرى النقود كاملة، جشع، لا يكف عن تفحصي بنظرة ريبة وشك، محتاطاً وكأن الفقير مشروع سارق ينتظر الفرصة، بدين تدنو معدته من فخذيه، ونظارته لا تغادر أنفه المعقوف المرتفع لكنها تسمح له بالنظر من فوق إطارها البني بعينين صغيرتين مدورتين باردتين كعيني بومة، ثنين بخمس تالاف، ثنين بخمس تالاف...

اشتري لحبيبتك ورده، مقتربة من ثنائي اقتعد على مسطبة يصلها القليل من ضوء مصباح الشارع الذي ينحني على نفسه في اتساق عفوي مع اتجاه سير الشاطئ، اشتري لحبيبتك ورده، كان بادياً عليهما الخصام وصمت بارد كدر حلاوة اللقاء، اشترِي لحبيبتك الزعلانه ورده جوريه حلوه مثلها، فضحك الاثنان، وجدت عيونهما طريقها ملتمعة، ذاب الغيض كاشفاً عن قلبين مرتعشين يستنجدان ببعضهما، فهرع الشاب متحمساً واشترى باقي الباقة بثمن منصف وقدمها إلى حبيبته عربون صلح ووئام لا يجب أن يداخله الشك.

حثت خطاها بعيدة عنهما تعد نقودها متهللة القسمات متجهة إلى الصيدلية حيث قابلها بوجهه المقيت كما

توقعت، الحمد لله أستطيع العودة الآن إلى البيت ومعي الدواء، بعد أن تفحص نقودها بين سبابته وإبهامه كخطوة استدراكية لكشف زيف نقودها ومن ثم رفعها أمام عينيه، يا له من كائن بغيض؟!

لم أتوقع أن السير حافية مزعج... أنت من تسرع ورمى بحذائه... ليس مهماً لن أحتاجه ثانية في وظيفتي الجديدة... هل أنت مدركة لما تقولين... نعم، هو الحل الأمثل لجميع مشاكلنا، والدتي لن تبقى طريحة الفراش بسبب نقص دوائها وغذائها، المعلمة لن تجد من تسخر منه وتستخف به كما تفعل معي، التلاميذ لن يضطروا إلى خلق مسافة أمان بيني وبينهم، ولن أكون ملزمة بالتغاضي وافتعال لامبالاة زائفة أجيد وضعها على تعابير وجهي كمساحيق تجميل أتزين بها، وداعاً مدرستي، لن يكون لي نصيب معك، ولن أصبح المعلمة التي وددت أن أكونها حينما أكبر، مستأنفة سيرها حذرة متوجسة من مخلفات الشوارع وشظاياه على قدميها العاريتين... في الغد ستعتادين على ذلك، البداية دائماً صعبة، في الغد....

أمي أمي، لقد جئت بدوائك، ستتحسن صحتك حالما تأخذينه، هيا أمي انهضي، ومدت يدها الصغيرة نحو جبين أمها تستطلع حرارتها... لا أفهم كيف أصبحت

باردة ساكنة؟! أمي أرجوك هيا انهضي، تركتها محمومة تتصبب عرقاً!! أمي، أمي هيا انهضي، هازة كتفها... أمي هاك دواءك، مخرجة بخاخ الربو من علبته.

بكلمات متأنية ونبرة ثابتة محايدة لا يتقنها سوى الأطباء قال متفحصاً الأوراق التي بين يديه: جميع الفحوصات والتقارير السابقة تؤكد ما سأخبرك به الآن، أنت بحاجة ماسة وعلى وجه السرعة إلى عملية قلب مفتوح، هناك أكثر من صمام شبه مسدود، أتمنى أن تتخذي قرارك، ما من مجال للتردد، قلبك متعب سيدتي فلا تضيعي فرصة إنقاذه.

قلب مفتوح

خرجت من عيادة الطبيب تسير على غير هدى، رأسها يموج بخواطر متضاربة متسارعة عشوائية، السماء تهبط على رأسها وليس من قدمين يحملانها، توقفت وهلة ممسكة بصدغها في محاولة لالتقاط فكرة تسدد بها خطواتها... يا إلهي أين أذهب الآن؟! أين هو عنوان الفندق، ما اسمه، ماذا دهاني؟! وشرعت تبحث عن بطاقة الفندق بين محتويات حقيبتها السوداء المنتفخة بيد عمياء عجلى مرتبكة.

صداع، صداع شديد يهتك بتركيزي، لا أتقن الاتجاهات ولا أحفظ الأمكنة، يا إلهي، أنا أضيع في شبر ماء، لكن أين بطاقة الفندق؟! كيف نسيت اسمه؟! فندق الركن الهادئ؟! البحر الهادئ؟! يا الله لا أذكر ما اسمه بالضبط، أي ورطة أنا فيها؟!... عمليتك لا تحتمل التأجيل أكثر، قلبك متعب للغاية... ليس بالجديد عليه، هو متعب من زمن بعيد... لن أخبرهما بما قاله الطبيب،

لن أثقل عليهما تكاليف إصلاح قلب مجهد، لا أظن أن هناك فائدة من ذلك، صداع، صداع... واثقة أنه ضغط دمك المرتفع، لا أفهم لماذا أصبحت مهملة بهذا الشكل! كيف لك أن تنسي جلب حبوب الضغط معك؟!... لكن أين تلك البطاقة الملعونة؟!... أمعقول أنك لم تضعيها في حقيبتك؟... كلا، أنا واثقة أنها هنا في مكان ما من هذه الحقيبة، مسندة بها على فخذها النحيل تفتش... تمهلي، كوني هادئة... آآآخ الصداع يشتت تركيزي، أين اختفت تلك البطاقة المشؤومة؟!... عروسك نحس مشؤومة، قدمها نحس علينا، أخرجها من بيتي لا أريدها معي، نحس، نحس... حينها لم أصدقها بل شعرت بالاستياء الشديد منها، لكنها للأسف كانت محقة، لم يسلم أهل الدار من نحسي الذي أطاح بهم الواحد تلو الآخر حتى استسلم زوجي في الدفاع عني أمام والدته التي وافتها المنية بشكل غريب فلحقت بولديها وزوجها... اسمع كلام أمك وطلقها يا ولدي، ستأكل رأسك أنت الآخر، طلقها يا ولدي قبل فوات الأوان... المسكين هرب بطفلينا خشية أن يلحقهم الدور... كان قاسياً معك، كيف لك أن تشفقي عليه الآن... بل كان خائفاً... حرمك من ولديك اللذين كبرا بعيداً عن

حضنك... المهم أنهما سلما من نحسي... لا بد لها أن تعيش وحيدة ونحسها، هكذا نصحه الشيخ، يا لتلك الوحدة الشاقة الطويلة! وهذا الطبيب يطالبني بعشرين ألف دولار كي يرد لي قلبي المعطوب جديداً! أبعد هذا الشقاء أصلحه؟! فتر فمها عن ابتسامة ساخرة متهكمة صاحبتها دمعة تخبطت بين أخاديد وجهها الستيني الناحل.

لم يتبق سوى ساعات قليلة على موعد إقلاع الطائرة، وأنا ما أبرح عالقة بين الزحام ومصابيح السيارات المشاكسة، ضجيج هائل يشعرني بالضياع والاضمحلال، غريبة لا أنتمي لشيء وكل ما حولي يثير ريبتي وتعاسة دمغت روحي عليها منذ تلك الطفولة البعيدة الشقية، حقيبتي على ظهري بقيت رازحة وأنا أتأمل صراخ النسوة حول أمي، جثوت عليها، رائحة الياسمين ما تزال تنبعث من رقبتها الهزيلة وشعرها، ليس من عادتها أن لا تستقبلني، متخشبة بلا حراك، أمي، أمي، شعرت بالخوف، خوف عميق قاتم يملؤني، أكدته لي إحداهن وهي تجرني من يدي عن أمي المسجاة على فراشها: أمك ماتت، ادعي لها بالرحمة، عن أي رحمة كانت تتحدث وأنا الأحوج من بين الجميع إلى تلك الرحمة؟!

تسمرت عيناي في ذهول على وجهها الملفع بوشاح أسود أفصح عن شامة كبيرة تحط على جانب ذقنها ثابتة لا تنزلق حيث الجاذبية حين قالت: أمك ماتت.

مدهشة تلك الأنوار المتنوعة بتشكيلاتها وألوانها من هذا البعد، وكم يصعب علي أن أرضى بجهلي وخيبتي، أين كنت من عالمهم الجميل هذا؟ مساكين لا أظنهم يقدرون ما هم فيه من نعمة، وترف البقاء مجتمعين متقاربين من بعض وإن قطعت الحدود بينهم، لن ينفع التأسي وأنا أكابد آلام الاحتضار والتحول إلى شيء ذميم وضيع، لكن ما يهمني الآن هو متابعة رصد تلك المخلوقات كآخر عمل جميل أقوم به قبل... شحذ طاقته، دنا من السماء إلى حد يستطيع فيه إدراك كنه تلك السيدة التي تعترض طريق السيارات بحقيبة هشة ورأس يجتر ذكريات ومشاهد ماضية حد الإنهاك.

استقلت سيارة أجرة نحو الفندق حيث حقيبة ملابسها الصغيرة بانتظارها مكتنزة في إحدى زوايا قاعة استقبال الفندق ومن ثم إلى المطار وكلمات الطبيب تدوي في رأسها: قلبك في وضع خطر، لا بد من إجراء العملية في أسرع وقت، همهمت مستاءة كاشفة عن أسنان تقادم عليها الوقت وابتسامة شاحبة هازة رأسها ببطء في إعلان

أخير عن استسلام ونضوب قوتها... سأدخل معهد المعلمات حتى لو تهدم المعهد على سقف المنحوسة، لن يثنيني أحد، فلا ترهقي نفسك هذه المرة يا زوجة أبي، هذه المنحوسة ستصبح معلمة... ذاك الطبيب لا يعرف كم قاسى قلبي؟ لو يعرف حجم الأهوال التي اعترضت طريقه لما أصر على الإسراع بإنقاذ خردة لا نفع منها... هل تدركين أن قلبك الكبير الطيب أكثر ما شدني إليك من سائر بقية الزميلات، وستكتمل سعادتي إن وافقت على الزواج بي يا ست شيماء... للأسف يبدو أن نحسك أكبر من طيبة قلبك، ولا يسعني البقاء معك بعد الآن، لم أثق بكلام أمي لكن الأيام تثبت لي حسن قراءتها لطالعك، بت أخشى على نفسي وولدينا معك، خسارة أن نحسك يفوق صفاتك الأخرى الجميلة، خسارة، لم تمض بنا الحياة كما توقعت، فاعذريني ليس الأمر بيدي، عائدة بحقيبتها دون ولديها إلى زوجة أبيها التي بان على تعابيرها المجعدة مشاعر متناقضة أكدت صدق فراستها وأخرى أشعرتها بالحزن على المنحوسة التي طالما ساعدتها في إعالة إخوتها ومساعدتهم.

يا إلهي لماذا هم أشقياء لهذه الدرجة؟! ما شهدت أحداً فيهم دون معاناة وكدر! لا أفهم ما يجري في

حياتهم القصيرة هذه! لكني أصبحت مدركاً أنهم يحملون على أكتافهم وزراً ثقيلاً لا طاقة بنا على حمله، لا أدري أبعد ما رأيته هل أحسدهم أم أغبط نفسي أنني نجم قارب على نهايته؟

من نافذة السيارة تبصر الشوارع المزدحمة بالمركبات، ويزدحم رأسها بعشرات الصور فيضيق صدرها، تفتح النافذة قليلاً مستشعرة هواءً مليئاً بعادم السيارات فتبادر إلى رفع زجاجة النافذة متكدرة، لا شيء يجري حولي كما يجب، لماذا كل هذا يا إلهي؟! أدرك تماماً أن طريق حياتي مدجج بالمطبات، لكني لم أتوقع أن تكون النهاية هكذا، مطت فمها ساخرة متهكمة لكن دموعها غلبتها نازلة على خد ذابل، أمن المعقول أن أرهقهما بعد هذه السنين؟!... لا لن يحدث هذا أبداً... أأطرق بابهما طلباً في مساعدتي لإنقاذ قلب تالف من الأساس؟... لا لن يحدث هذا، وليذهب ذاك الطبيب إلى جهنم... أتبكين على حياتك الخالية؟... كلا، هي دموع فائضة، فليس فيها ما يستحق البكاء عليه، وقد أفنيت عمري أقاسي منها... أرجوك لا تأخذهما مني، أرجوك، كيف أواصل حياتي دونهما؟! اتركهما لي، لن يحدث لهما مكروهٌ معي، أرجوك ثق بي، لن يحدث لهما مكروهٌ معي، أنا

أمهما، أتمنى عليك أن تحكم عقلك، هي مجرد صدف بائسة، لست بالمنحوسة، لست بالمنحوسة، فلا تصدق ذلك، ودعهما معي، انتشلت على عجل منديلاً ورقياً مسحت دموعها وأنفها المحمر الملتهب الجانبين مستذكرة زوجها وهو يدفع بها عنه ساحباً ولديها الصغيرين من يدها دون رحمة... يا الله كم كان قاسياً متحجر القلب! كيف تغيرت مشاعره نحوي بهذا الشكل؟! كيف؟ سؤال لم أعرف جوابه الحقيقي حتى اليوم... أمه غسلت عقله بالترهات والمصادفات التي حاكها القدر وأسبغت عليها مبالغاتها لأبدو منحوسة دون أدنى شك... وكيف تكون المنحوسة!... لست بحال يتقبل سخريتك فكفي عني... اعترفي أن اللعنة تحل بمقدمك، ماتت أمك قبل أن تكملي السابعة من عمرك، جدتك التي تكفلت بتربيتك قرصها عقرب في مقتل، والدك دهسته سيارة مسرعة قفزت نحوه من الجانب الثاني للطريق، شقيق زوجك الشاب الظريف لقى مصرعه مصعوقاً على عمود الكهرباء وهو يحاول ربط السلك، أم زوج... أرجوك كفي عن مضايقتي... نعم القائمة تطول، ولولا خشيتك على ولديك ما كنت رضيت بتركهما مع

زوجك الذي فر بهما خشية أن يطال أحدهما الدور... آآآه كم أنت بشعة لا ترحمين!... لا أقول سوى الحقيقة.

الطريق إلى المطار يختنق بمركباته بينما الليل يغشى السماء على قمر رصين ونجوم بهية لامعة... هلا أسرعت من فضلك، سيفوتني موعد الطائرة... لا بد أن حميدة ستقلق عليّ، المسكينة وحدها لم تصدق أني منحوسة وأوتني في بيتها الصغير بعد طلاقي متحدية اللعنة ساخرة: لن يجد النحس مكاناً في بيت عجوز أرمل... سيدتي لا تقلقي دقائق ونصل إلى المطار... لن أخبر حميدة بما قاله الطبيب رفقاً بحالها.

المطار بفضائه المرتفع يبعث في نفسي شعوراً بالرهبة، عيون فضولية مستدركة تحاصرني، أشعر برعشة تسري في جسدي فتتثاقل خطواتي الضعيفة المترددة والتي يضيع صداها وسط صخب الحقائب النافقة على حزام متحرك أو تلك الجاثمة أمام أصحابها بانتظار ساعة الإقلاع، شيء من البرد ما يفتأ يجالسني مقعدي المعدني اللامع المنزوي عند نهاية البهو، أناس بسحن وتعابير مختلفة تمر عليّ مسرعة غير مستشعرة بوجودي الضئيل، نداءات بالتوجه إلى بوابات ومدن يتدافع نحوها المسافرون في طوابير، ضباط وموظفو جوازات، أختام

وبصمات... طوابير نحو الجنة وأخرى إلى النار، لا مجال للغش أو المراوغة، ملائكة شداد عمالقة ينظمون وجهتنا نحو الصراط المستقيم، كيف أجتازه يا إلهي بكل هذه الأحمال؟! وماذا عن نحسي هل يرافقني هو الآخر؟!

- شيماء هههههه انتبهي أن تحملي نحسك إلى الطائرة، اصعدي وحدك هههههه.

- نعم يا حميدة سأصعد دونه هههه.

هرج وضوضاء أمام الشاشة، تذمرات تعالت إثر النداء بتأخر إقلاع طائرتنا إلى ست ساعات قادمة، ما هذا النحس؟ يبدو أن نبؤة حميدة ستتحقق!... كدت أموت لولا لطف الله، لا أفهم، بلحظة واحدة داهمتني شاحنة نقل كبيرة خرجت عن مسارها، انتشلوني من السيارة بمعجزة، واثق أن نحسك سيقتلنا واحداً تلو الآخر، واحداً تلو الآخر، مجنون من يعيش معك بعد هذا اليوم، مجنون. أسفت عليه وعلائم الصدمة وشبح الموت ما يبرح ملازماً قسمات وجهه وتأسيه على سيارته الجديدة التي لم ترد عنها التميمة الزرقاء بعيونها الخمس نحسي... أتشعرين بعد هذا الوقت بالشفقة عليه؟!... ليس بشفقة ولا بغض، فقد عذرته، ربما كان محقاً، من يدري؟!

تراجع صدى الاحتجاجات وغمغمة المسافرين الذين توجه بعضهم نحو القاعة المخصصة للصلاة بينما ظل الآخر مراوحاً بين كرسيه والحقيبة متذمراً شاتماً سلطات الطيران وعدم احترامها المواعيد ووقت المسافرين وراحتهم، أين أذهب يا ترى؟! ما عساني أفعل بهذه الساعات؟! وخرجت من باب البهو الزجاجي الواسع العريض نحو الفسحة الأمامية بحثاً عن متنفس وهواء طبيعي جالسة على إحدى الأرائك في مواجهة المقبلين إلى المطار، ومن فوقها قمر يتهادى بين غيماته ونجوم لامعة أكسبت ليل المطار جمالاً لا يقل في روعته عن سحر ليلة النجوم، تخاذل فيها ذلك النجم الغريب متقهقراً مجارياً فضوله نحو البشر في محاولة فات أوانها لفهمهم والتعرف عليهم.

الجلوس أرهق ظهرها فقررت الدخول إلى بهو المطار ثانية متوجهة نحو قاعة الصلاة الضاجة بالنساء والأطفال باحثة لها عن مكان تمدد فيه جسمها الضعيف المنهك ورأسها المثقل... قلب مفتوح، هذا الطبيب المجنون يريد أن يشق صدري، لاحت عليها ابتسامة صغيرة تلتها تقطيبة عجول، هو لا يعرفني بشكل كاف، وإلا ما كان لينقذ قلب امرأة طال نحسها من حولها... لا تستسلمي

لادعـاءاتهم الفارغـة، هـي مجـرد مصـادفات لعينـة... هههههـه نعـم مصـادفات لعينـة وحـدها نحسـك مـن يسـوقها... لـن أستسـلم مثلك، مجـرد مصـادفات، مجـرد مصادفات...

حطت رأسها على حقيبة يدها شابكة جسمها الضئيل إليها، وقليل من البرد يزاور عظامها فتشد بيديها على ساقيها لتزداد تكوراً وانكماشاً، تسحب طرف جلبابها على قدميها، ترتعش متقلبة من جنب إلى آخر هرباً وامتعاضاً... يا ربي كيف يجدن إلى النوم سبيلاً؟! متفحصة من حولها بعين الغبطة أو ربما بعض من الحسد.

حاولت النوم، غشت وجهها بطرف حجابها، أغمضت عينيها، راودتها الأفكار والخيالات من كل صوب، فاختلط الواقع بالحلم في إغفاءة صغيرة، أصوات مختلفة، مرتفعة، شغب أطفال وتذمر أمهات، وجوه لا تحمل صفة مشتركة سوى أمارات الترقب والانزعاج، الضيق والملل، التعب والنعاس، ست ساعات إضافية على الوقت المحدد، أي استهتار بالمواعيد هذا؟!... يبدو أن نحسك قد طال الجميع هذه المرة، احمدي الله أنهم قد اكتشفوا الخلل على الأرض وإلا هههههه... أصمتي

رجاءً دعيني أنم، أشعر بالتعب، لا شيء في على ما يرام، منهكة بشكل غريب، غريب، لا طاقة لديّ على الاستمرار، وهن يسري في سائر جسدي لا أستطيع تعريفه أو تسميته، أهو انتهاء الرغبة عن المواصلة؟! الاستسلام؟! بت لا أفهم لغة جسدي، وكل ما أحتاجه الآن هو النوم، النوم وإن كان وسط غرباء، النوم ما أحتاجه الآن وليس من شيء آخر، انزلقت دمعة من مقلتها شاقة سبيلها بتأن رغم الضوضاء التي أخلد معظم صانعيها إلى النوم قرب أمهاتهم... جميلة هي الحياة مع أم يملأ شذى عطرها أنفك، تتحسس نعومة جلدها، تشاغب خصلات شعرها وجهك حين تهم بحضنها، يا له من منظر مبهج لا أظن أن لريشة فنان مبدع القدرة على التقاط هذا السخاء والدعة الطفولية حيث هم في غمرة أحضان دافئة آمنة، وما ينفك ذلك الرضيع يداعب ثدي أمه بيد طرية ناعمة بينما فمه يجهز عليه، هههه ملعون لا يشبع.

رغم شعوري المطرد بالإرهاق والتعب، ما أبرح أتقلب يميناً ويساراً على سجادة صوفية تقبض على عظامي الهزيلة فيزداد وجعها ويتفاقم شعوري بالوحدة، كل امرأة فيهن تتأبط طفلاً وحتى تلك الشابة الموسيقية

الأنيقة نامت متأبطة حقيبة آلة الچلو الكبيرة خشية عليها وحباً، أنا الوحيدة بينهن ليس معي سوى نفس مرهقة مريضة... احذري أن تصيبيهن بعينك احذري يا امرأة، يكفي أن نحسك قد طالهن وتعطلت الطائرة، آه لو يعرفن أنك السبب لشرعن بأكلك، ابتسامة شاحبة خطفت على طرف فمها إثر خاطرها... حاولي النوم أمامك ساعات طوال، بينما هي مستلقية أرسلت من نقالها رسالة قصيرة صوتية إلى حميدة تطلعها على المستجدات وتطمئنها من وصولها إلى البيت في الصباح الباكر... لن أنسى معروفك معي يا حميدة... وافقي على طلبه وتزوجيه، كوني أماً لأولاده الأيتام، لا تردي عوض الله لك وتقابليه بالنكران، تزوجيه ما دام يحبك مع نحسك هههههه، لا تفوتي الفرصة، رجلُ مثله لن يعوض، ولا أظن أن الزمن سيكون معك سخياً إذا ما ضيعته من يدك... وللأسف مات ويده بين يدي في غرفة المستشفى، الرجل الذي أحبني بصدق ولم يصدق بنحسي الذي طاله بعد فترة وجيزة من خطبتنا فقتله بذبحة صدرية لم يشكَ من أعراضها قبلاً... لقد قتلته يا حميدة، لقد قتلته، المسكين كيف استجبت لرغبته؟ وصدقت كلامك يا حميدة، ما

كان عليّ أن أقدم على الزواج به، لقد قتلته، المنحوسة قتلته.

نداء، نداء على ركاب الرحلة رقم مائتان وخمس التوجه إلى البوابة الثانية، نداء على ركاب... ، تأهب وعجلة بين صفوف المسافرين، توقظ النسوة أطفالهن، ترتب هيأتها صاحبة الچلو وتخرج معه مسرعة من القاعة التي فرغت بسرعة وجيزة من الجميع، طفل لا يزال نائماً يرفض القيام مع أمه التي استرعى انتباهها تلك المرأة التي ما تلبث هي الأخرى نائمة لم يوقظها النداء ولا الضجيج، فاقتربت نحوها: يا حاجة هيا انهضي، طائرتنا ستقلع، يا حاجة هيا انهضي، هيا الطائرة ستقلع قريباً، ربتت بيدها على كتف المنحوسة، كررت على مسامعها بصوت أعلى: يا حاجة هيا انهضي، ستفوتك الطائرة هيا، رفعت متوجسة يدها بهدوء لكن دونما حراك.

عند المحطة المقفرة حيث كل شيء ساكن خامل حتى الهواء، أخذوا أماكنهم على مساطب خشبية نحل طلاؤها في تآزر شقي مع بقية أركان المحطة، مع مسافرين لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين، وحقائب واهنة ضعيفة تشكو الجوع، وصمت ثقيل يخيم على الوجوه المترقبة لحظة الفرار من هذه القرية القصية عن خريطة العالم.

وقع أقدام القطار الحديدية المزمجرة وصوت صفيره يستفز سكونهم وفضول العصافير المعشعشة على رأس نخلة اصفر سعفها واهتز، فتوجهوا نحوه بخطى ثقيلة بطيئة لكن مصممة على المغادرة والبدء في مكان آخر.

يهم بالصعود الشاب ذو السبعة عشرة عاماً بحقيبته الخفيفة وأحلامه الواعدة الكبيرة بعد أن ودع والده الكهل وأمه المتعلقة بكتفه نائحة باكية: لا تتأخر علينا يا ولدي... لا تتأخر، سنبقى بانتظارك.

- كلا يا أمي لن أتأخر، وسأعود عليكم إن شاء الله بعلم كبير ينقذ قريتنا من خوائها، لن أتأخر عليكم... وداعاً.

منتظر عاد

ما حلقة الضياء هذه، فلأتفحص عن قرب، لاااا إنها حلقة من نار مشتعلة يشق دخانها الكثيف ستر الليل وحجبه، النار يتصاعد لظاها وحولها جمع من الوجوه المتجهمة الغاضبة وهي تلقمها بأكياس من مواد مختلفة وحبوب يصعب عليّ تخمينها من هذه المسافة، فيرتفع أزيزها، لا أفهم ماذا يجري معهم، لأدنو أكثر، مضحك مزري هذا الفضول الذي يكتنفني في ساعات احتضاري! وحماقة مطلقة أن أشغل نفسي بقوم غريبي الأطوار يقضون حياتهم القصيرة في البحث عن الشقاء والتعلق بمسبباته، للآن لم أشهد أحداً فيهم مختلفاً، جميعهم سواء يغادرون غير راضين، حقاً مساكين...

أحرقوها جميعاً لا نريدها بعد اليوم في قريتنا، لسنا بحاجة إلى مثل هذه الآلات والأدوات، احرقوها لا نريد لها أثراً، وأخذ يَصْب بالنفط عليها من جديد، فتتصاعد ألسنة النار بينما يحذره أحدهم من مغبة الاقتراب منها

أكثر لئلا تجتاحه بضراوتها، لا نريد هذه الآلات البغيضة التي تأخذنا بعيداً عن عالمنا وحياتنا السالفة الهادئة، كنا بمأمن عن كل هذه التعقيدات والشرور التي جلبها المهندس معه، لمِ عاد؟! فيرد آخر بنبرة عالية غضوب: عاد كي يخرب علينا أبناءنا ومعهم نساءنا، بلاد الغرب لحست عقله، وبنطال الجينز ضيقَ علي رجولته، ولكم أن تتخيلوا أن ابنتي تطالبني عازمة على الالتحاق بالجامعة أسوة ببعض أولادكم الذين انجروا خلف أفكار ونصائح ذلك المهندس الذي ليتنا ما انتظرنا عودته، وما عولنا عليها، فليذهب إلى الجحيم، وألقم فوهة النار كيساً أو كيسين من الحبوب المحسنة المقاومة للآفات ففاحت رائحتها وتصاعد دخان أسود على شكل دوامات يتزايد قطرها صعوداً على أنظار المجتمعين الساخطين.

صاح ثالث وقد التمعت عيناه حقداً وقسمات وجهه ثبوراً من خلف مشعل ما فتئ يحمله بيده مهدداً: منذ أن عاد فسدت حياتنا، آه كم خاب ظننا؟! كنا قانعين بقدرنا وبوار حقولنا، ما الغاية من حفر تلك الآبار؟! المياه وإن غار معظمها فهي كافية لتلبية حاجاتنا البسيطة بلا تعقيد ولا هموم أو مصالح، جميعنا قانعون بأقل القليل، وما من موجب لهذا الشقاء والكدح، ليته ما عاد، لقد عكر صفو

حياتنا، أدخل الطمع إلى نفوس أولادنا، وزرع بذرة العصيان والتمرد في رؤوس زوجاتنا، بتن يشتكين ساخرات عسر يدنا وضيق حالنا وكأن الأمر مرهون بنا، أفسدهن منتظر هذا، ألا يعرفن أن الله مقسم الأرزاق فلمِ هذا الشقاء وقدرنا مكتوب؟ اللعنة عليه، اللعنة عليه، لا أفهم ما الذي أتى به إلينا ثانية؟!

التفت الجميع نحو صوت الجرار القادم نحوهم والذي ولج حلقة النار بتهور سائقه ومشجعيه الذين أضرموا النار فيه، لسنا بحاجة إلى هذه الآلات المعقدة الصاخبة التي كدرت أيامنا مستهلكة أبداننا وأرواحنا بأمل السنابل الخضراء، طفح كيلنا من الانتظار، لمِ عاد؟! ليرجع من حيث أتى لسنا بحاجته، ووقف يرقب الجرار، وقد بدأت النار تحكم بجسده، بتعابير مرتاحة مستبشرة، ما عاد ذلك الجرار يهدد سكون صباحاته بصوته النشاز العالي، إلى جهنم وبئس المصير أنت ومن أتى بك، قاذفاً به بدلو آخر من النفط محفزاً شهية النار والحضور.

بمشاعلهم المرتفعة أعلى رؤوسهم وقفوا بشكل دائري يرمون إلى حلقة النار ما بأيديهم من أكياس بذور وأسمدة وكل ما تحصلوه من معدات زراعية جلبها المهندس منتظر إلى القرية، لسنا بحاجة لها، حرقوها

النار، سنعيش كما عاش آباؤنا ومن قبلهم أجدادنا راضين بأرزاقنا وإن كانت قليلة ومحدودة، لن نسمح له أن يقلق نفوسنا بهذه المعدات، وقفز يجري إلى محرك الماء يكمم صوته ومحاولاً بمساعدة بعضهم قلعه من على حافة الساقية فمنعه ابنه الشاب متوسلاً: كلا يا أبي لا تنزعه من مكانه لولاه لمات الزرع، أرجوك يا أبي أتركه، ما لكم؟! ناظراً في الوجوه الغائمة المدلهمة، ما لكم تخربون بأيديكم زرعكم؟! حقولنا لم تخضر قبل اليوم، فلماذا هذا السخط عليه؟! وقد عاد لمساعدتنا وإنقاذ قريتنا من هلاكها المحقق، كلا لن تنزعه من مكانه رامياً بنفسه على محرك الماء مدافعاً عنه من بطش والده الذي تنكر لفضل هذه الآلة مستنكراً هديرها المزعج وهم بمساعدة آخرين معه على حملها كقربان آخر للنار على وقع احتجاج ورفض الابن: لن أبقى في هذه القرية المنكوبة بعد اليوم، والله لن أبقى، وحمل نفسه بعيداً ساخطاً.

أنظروا بربكم أنظروا كيف ألب أبناءنا علينا!؟ وكيف يخرجهم من القرية الواحد تلو الآخر، ابن رحيم، وابن جاسم وابن راضي فروا إلى المدينة وابنك لاحق بهم يا أبو سهيل، والله إن لم تطردوه من قريتنا لن ينصلح حالنا

وتعود حياتنا إلى سابق عهدها الهادئ، ألا تذكرون كيف بالأمس القريب فرت ابنة فلان من بيت أهلها حين أرغموها على الزواج من ابن عمها، بالله عليكم أخبروني هل جال في خاطر أحدكم يوماً أن تحدث مثل هكذا فضيحة في قريتنا؟! لم نعد قادرين على حكم بيوتنا كما السابق، زوجات ناقمات وأولاد متذمرون، الجميع يطالب بحقوقه، ونحن أين حقوقنا، أين حقوقنا؟! لولا عودته المشؤومة ما أصبحنا بهذا الحال، لا أدري كيف دس السم في حياتنا؟!

صاح أحد المتجمهرين بصوته المبحوح الغليظ: ولماذا لا نطرده الآن من قريتنا؟! هلموا بنا نخرجه، وهم مبتعداً عن حلقة النار ومشعله أمامه ومن خلفه الجموع صوب بيت المهندس منتظر ككتلة نارية مهيبة متحركة، إن لم يغادر القرية سنحرقه وبيته، لقد طفح كيلنا، لكن ما ذنب والديه؟! وما ذنبنا نحن؟! أحاطوا البيت بعزيمة، كل في مكانه ثابتاً، أوصى كبيرهم بذلك ثم طرق الباب طرقات عالية متتابعة منادياً: أبو منتظر إفتح الباب، طاااااااخ طاااااخ.

لا أفهم ما ينوون فعله أولئك البشر، يصعب عليّ التنبؤ، وما أمامي سوى الانتظار كمشاعلهم المتأهبة

بألسنة نيرانها، لماذا هم غاضبون؟! بعد عمري الطويل هذا لا أعتقد أن هناك شيئاً يستدعي هذه الجلبة، فلأنصت علي أفهم وأنا الأحمق الذي يكابد آلام الانفجار والتحول في أية لحظة قادمة، ولا أعرف لماذا أشغل نفسي بهم! يا له من فضول غريب ساذج يتملكني! أو ربما هروب جبان من مصير حتمي موشك!

حرارتي تزداد ارتفاعاً بشكل مهول، أحشائي تمور، تتقطع إلى أشلاء، غليان لا قبل لي عليه، أنهار وكل شيء فيّ يتهاوى بصخب عنيف جارف، لا أقوى على المقاومة والتم...

وقف أبو منتظر عند الباب وقد بانت على وجهه علائم الهلع والخوف مما ينوونه، محاولاً تهدأة جموحهم وجبر خواطرهم بكلمات متعقلة حكيمة لامست قلوبهم، فخفت غلواؤهم لكنهم أصروا على خروج منتظر من البيت هذه الليلة دون مماطلة أو تأجيل، وليذهب من حيث أتى، ليدعنا نجمع قوتنا كما قدر الله لنا، لسنا بحاجة إلى تلك الشياطين التي جلبها معه، لا نبغي سوى الكفاف، فلماذا نرهق أرواحنا ورزقنا معلوم ومكتوب! أخرج ابنك حالاً من البيت وإلا، ملوحين بمشاعلهم وسنا نارها المترصدة، أخرج حالاً يا منتظر

ولا تعد إلى هنا ثانية، هيا أخرج، الأصوات تتعالى مترقبة خروج منتظر المذل جاراً خلفه الخيبات في طريقه الموحش دونما التفات إلى المحطة التي غادرها قبل خمسة عشر عاماً ملؤه الأمل والطموح، وها هو ثانية يجلس على إحدى مساطبها الخشبية العتيقة مكلوم القلب والوجدان وحيداً بلا أمل بانتظار قطار اللاعودة هذه المرة.

انفجار ساطع كوني عظيم، ليس بالبرق ولا بالرعد كما ظن أهل الأرض رافعين رؤوسهم نحو السماء في هلع هاربين، إنه أشد بكثير، يا جماعة، احذروا، اشتعلت السماء وهجاً، كرات من نار تتقاذف عالياً بعيداً أشبه بالشهب، بعضهم تدافعوا نحو الشرف وسطوح منازلهم ليستدركوا بقية المشهد الذي دام أياماً وتداولته قنوات الأخبار والمواقع والصحف العالمية بالدهشة والتحليل وبأنه الحدث الاستثنائي الأشد تميزاً من نوعه الذي لا يقع سوى مرة واحدة في العمر، بعناوين عريضة كبيرة "احتضار نجم".

-تمت-

مساء الأربعاء ٣- كانون الثاني-٢٠٢٤

المحتويات

ثقب أسود ٧
إنهاء خدمات..... ١٢
صورة تذكارية ٢٦
ساعة جدي..... ٤٠
عاشقان..... ٥٣
وصية ٧٠
فضة ٨٤
المسمار الأخير ١٠٠
وحدها من تعرف الحكاية ١١٥
رسالة في جيبي ١٣٢
قلب مفتوح ١٤٩
منتظر عاد ١٦٥
المحتويات ١٧٣

٨١٣ / ٩٠٥٦٣
أ ٢٤٩ الابرو ، نادية
جاء من العتمة / نادية الابرو
ط١ :- بغداد : جلجامش ، ٢٠٢٤ .
١٧٤ ص ؛ ٢١ سم .
١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .

رقم الإيداع
١٧٦٧ / ٢٠٢٤

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (1767) لسنة 2024م

دار ومنشورات جلجامش
ناشرون وموزعون
العراق - بغداد - شارع المتنبي
جديد حسن باشا
+964 770 633 6353
saidgilgamesh@gmail.com

دوران ودوران مشـبوب بالحمـاس والقـوة، نور ساطع أزرق وهاج لامـع لا تخطئـه عـين ولا ينفك يشدني وأمل بالتلاقي لا يتزعـزع لأدرك الآن أنـي أسـير نحـو فنـائي إذا مـا اقتربت نحوه أكثـر وقـد اسـتبدت الظلمـة والبرد بروحه، وحشية شرسة تغلب طبعه، الخوف من الموت والأفـول يـدمره، يخرجـه عن مساره، تلاشـى جمالـه وبهـاء طلعتـه الذي طالما غبطته عليـه، جـرم داكـن فـظ قبيح معتم بفم شاسـعة عملاقـة مرعبـة غائرة يلتهم مـا يصـادفه في نهـم بـالغ لا حدود لشبعه ولا مأمن مـن صـوت تقهقـره المجنون أو المستغيث ربما!

ISBN 978-9922-8864-6-6

دار ومنشورات جلجامش
ناشرون وموزعون
العراق - بغداد - شارع المتنبي
جديد حسن باشا
+964 770 633 6353
saidgilgamesh@gmail.com

2024